همسة في أذن حواء

تأليف

ابراهيم عاصي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

٢١
١ هـ

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤
حلب ص.ب : ١٨٩٢ . هـ : ٢٣٧٧٥١
بيروت ص.ب : ١٣٥٢٣٧

الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الطبعة الثانية

أن تنفد الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، خلال سنة أو سنتين من الزمان ؛ ذاك أمل كنت أتوق إليه .

أمّا أن تنفد خلال أشهر لم تتجاوز الستة ، فهذا إكرام غامر من الله لي ، هو أهله وأنا لست به جديراً . وهذه ثقة غالية يمنحني إياها القارىء الكريم ، وإنها لثقة أعجز عن الوفاء بواجب الشكران لها .

ولئن كان لي أن أتفاءل بشيء من وراء ذلك ، أعني إكرام الله وثقة القراء ، فإنه التفاؤل :

في أن يكون الله سبحانه ، قد قبل هذا النتاج المتواضع ، خالصاً لوجهه الكريم .

وفي أن يكون القارىء ، بل القارئة المؤمنة على وجه الخصوص ، قد بدأت تقبل على مطالعة ما من شأنه فتح عينيها على الواقع الظالم الأليم الذي تعاني منه ، وعلى المستقبل المظلم الرهيب الذي تتوجس منه خيفة ، وتساق إليه !

وفي أن يكون هذا الرواج للكتاب دليلاً ملموساً على أن الأدب النظيف الهادف ، الذي يواكب المجتمع ، ويتعرض لمشكلاته بإخلاص وصدق وبقدر من العمق ؛ قد صار هو المطلب الضروري والعاجل لجماهير القارئات والقراء ، حتى الذين تورطوا منهم فانحرفوا بعض الانحراف أو كله عن سواء السبيل ، سبيل الأنوثة الحق ، أو الرجولة الحق ، أو الأصالة والنظافة في الخلق والمسلك والضمير .

وفي أن يكون شاهداً حياً على أن « أدب » الانحلال والفسق والتدييث ، « وأدب » التملق والنفاق ، « وأدب » المجنة والضبابيات ، إضافة إلى « الأدب » المستورد عشوائياً بلا تبصر وانتقاء ، أو المترجم خصيصاً لنفث السموم ونشر البلاء ـ ما كان له أن يفشو بالقدر الذي فشا فيه في السنوات الأخيرة ، لولا أن وراءه مؤسسات مختلفة تعمل على نشره ! وسلطات متنوعة تفتح له الأبواب على مصاريعها ! في حين أنها تمنع ما سواه ـ كلّ المنع ـ من أن يدخل إلى مطبعة ، أو يظهر في سوق .

لقد آن لجماهير القراء عامة ، والمثقفين بخاصة ، أن يمجوا كل نتاج خبيث ، دخيل ، رخيص ، تحمل به سفاحاً ثم تقذفه إلى المكتبات أجنةُ بعض المطابع ومؤسسات النشر هنا وهناك !!.

وإنه لما يبشر بخير عميم ، أن أصواتاً عالية ذات وزن كبير في عالم الفكر والأدب ؛ أخذت ـ إن لم تكن آخذة من قبل ـ ترتفع بالنداء المخلص إلى المرأة العربية خصوصاً ، وجماهير القراء والمثقفين : أن أفيقوا من انبهاركم وضياعكم ، وأبصروا الصراط المستقيم [1] .

ولقد كان بودي بادىء الأمر أن تكون هذه الطبعة ، تكراراً لسابقتها ، دون أية زيادة أو تنقيح ، ومرد ذلك إلى ناحيتين :

---

(١) اقرأ على سبيل المثال ما كتبته الدكتورة « نازك الملائكة » وهي ـ في العالم العربي ـ غنية عن التعريف : مفكرة وأديبة ورائدة شعر . اقرأ لها :

١ ـ محاضرتها الرائعة بعنوان : « مآخذ اجتماعية عن حياة المرأة العربية » وقد كانت ألقتها في جامعة البصرة .

٢ ـ ومقالتها القيمة الخطيرة « محاذير في ترجمة الفكر الغربي » التي نشرت في مجلة الآداب اللبنانية عام ١٩٦٦ .

٣ ـ ومحاضرتها النافذة البصر والبصيرة « الأدب والغزو الفكري » التي ألقتها على مؤتمر الأدباء العرب الخامس الذي انعقد في بغداد سنة ١٩٦٥ .

أولاهما : إحساسي ـ شأن معظم من يعانون الكتابة أو يحاولون معاناتها ـ بضيق ، وإحساسي بنقص تلو النقص فيما كتبت ، كلما أعدت النظر فيه من جديد ! وهذه آية على أن الله وحده هو الكامل ، وعلى أننا نحن البشر نظل نفتقر إلى الكمال ما تكاملنا .

وثانيتهما : لأني لا أريد أن أدع مجالاً لقارىء ما أن يجد عليّ في نفسه ، لأنه اقتنى الطبعة (غير المنقحة والمزيدة) دون سابق إخطار مني إليه ، ولو أخطرته لتريث . إلا أن حضرة الناشر ـ حفظه الله ـ أرادني على الزيادة أكثر من مرة ، كما أرادني على التنقيح . فما كان مني إلا أن استجبت له استجابة الممتن الشكور ، فأضفت على الأصل عدداً غير قليل من التعليقات والحواشي ، واستدركت على بعض التوهمات مما وقع فيه بعض القراء الأفضال ؛ فضلاً عن أنني زدت عليه موضوعين اثنين رأيت أنهما يسدان ثغرة كان من الضروري سدها فيه .

الموضوع الأول بعنوان (عاش البنطلون) . والثاني أردته مقالاً انسجاماً مع الخط العام للكتاب ، فجاء بعد الفراغ منه على شاكلة قصة ؛ فأثبتها تحت عنوان (هل تعرف تلك ؟) .

وقد تكون هذه المقدمة هي الأخرى إحدى (الزيادات) على الكتاب . والحمد لله أولاً وآخراً .

إبراهيم عاصي

١ / ١ / ١٣٩٣ هـ

٣ / ٢ / ١٩٧٣ م

كلمة إلى القارىء

هذه مجموعة من المقالات ، سبق لي نشر بعضها في بعض مجلات دمشق وصحفها [1] ، بين سنتي ١٩٦٣ - ١٩٧١ ؛ إلا أن معظمها ينشر لأول مرة في هذا الكتاب .

ولقد أسميت المجموعة (همسة في أذن حواء) وذلك لسببين :

أولهما : تقليدي ، ذلك أن العادة درجت على تسمية كتب من هذا النوع باسم إحدى المقالات الواردة فيها .

وثانيهما : كون (حواء) تحظى باهتمام واضح في عدد من مقالات الكتاب ، إما مباشرة أو بشكل غير مباشر .

وربما كان من المفيد - قارئي الكريم - أن أسر إليك ، أن هذا الاهتمام ليس عرضياً ، وإنما هو عن وعي وقصد . فحواء هي الشغل الشاغل لكثير من كتّاب الشرق والغرب ، وهي الحربة التي مازالوا يستخدمونها ، ليطعنوا بها أول ما يطعنون (حواء) نفسها ، ثم المجتمع الذي تعيش فيه .

إنّ هذا السيل العارم من الصحف والمجلات والكتب والدوّريات المختلفة ، من شهرية إلى سنوية إلى غيرها .. هذا السيل العارم لو تأملناه لوجدناه - في معظمه - يستخدم المرأة مادة للاستهلاك . فصورة الغلاف لابدّ أن تكون لامرأة تقف بهذا الوضع المثير أو ذاك ! والصور الداخلية - ولا سيما صور الدعاية لأنواع الدخان ، أو الملبوسات ، أو المفروشات ، أو الأدوية .. وحتى قناني (البويا) - أي والله قناني (البويا) - لابد أن تكون لامرأة .

---

(١) مجلة « حضارة الإسلام » و جريدة « اللواء » .

والمقالات والمقابلات غالباً ما تكون حول امرأة ! ناهيك عن المسابقات الدورية والموسمية (للجمال) - بفتح الجيم - بقصد انتقاء (الملكات) ، وما يكون بعد تلك المسابقات من مواد استهلاكية للصحف والمجلات ، ولغيرها من وسائل النشر . والوقود دائماً هو (حواء) .

إنَّ تاريخ البشرية ، المكتوب منه والمُتخيَّل ، لا يذكر أنَّ ملكاً من ملوك الأرض استطاع أن يبسط نفوذه على أكثر من جزء من قارة أو قارتين أو ثلاث قارات في أبعد احتمال ! ومثالنا على ذلك : الفراعنة ، الأكاسرة ، القياصرة ، الأباطرة .. وكل من جاء قبلهم أو بعدهم من ملوك . أمّا (حواء) فقد نصّبوها أخيراً على عرش (الكون) ؛ نعم الكون بأكمله : أرضاً وفضاء ، يابسةً وماء ، نجوماً وسماء ، إنساً وجنّاً ، وطيراً ومومياء !!

أما سمعت بمن توَّجوها بالأمس [1] (ملكة جمال الكون) ؟!! حَقٌّ لهم فقد استنفدوا كلّ المسمّيات الأخرى ، ابتداءً من (ملكة جمال البطيخ) وانتهاء بـ (ملكة جمال العالم) !!

لقد كادوا (يُجنّنوها) - نعني المرأة بعامّة - لكثرة ما تلهوا بها وتلاعبوا واستخفوا .. أو إنهم (جننوها) فعلاً - ولا ننسى أن « الجنون فنون » - وإلا فما رأيك بإنسان تراه قبل ساعة يمشي في الشارع عرياناً ، (بالظلط) تقريباً ، ثم تراه بعد ساعة في الشارع نفسه يختال بلباس سابغ يلفّه طولاً وعرضاً ، ويُغيّبهُ من رقبته حتى عقبيه ؟! أليس هذا هو - بالضبط - حال الكثيرات ممن تراهن (يُنطْنِطْنَ) الساعة (بالميني والميكرو) وبعد قليل يتبخترن (بالماكسي) ؟!

* * *

(١) صيف عام ١٩٧١ .

إن الذين هم وراء الاشتغال المشبوه بقضايا المرأة على ذلك النحو ، لا يعْدون واحداً من اثنين .

ـ الأول : (تاجر) لا يبغي إلا الترويج لبضاعته ، فيتخذ المرأة وسيلة للدعاية لها . والتاجر هنا ، ليس ذلك الذي يتاجر بالرقيق في أسواق النخاسة كأيام زمان .. إنه التاجر (المتطوّر) الذي يتاجر بها صحافياً على أوراق المجلات والجرائد ! أو يتاجر بها (أديباً) في القصص والروايات ! أو يتاجر بها شهوانياً في كثير من الأفلام والمسرحيات ! أو يتاجر بها إعلانياً وفي عرض الأزياء !

ـ والثاني : (فاجر) دأبه تدييث [١] المجتمع ، وهمُّه (خنزرة [٢]) الخلق عن سابق تصميم وتصوُّر . وذلك بتحطيم القيم ، وقلب المفهومات ، وإشاعة الفاحشة ، وفضح المستور ، وإلغاء (العيب) ، وطمس معاني : « شرف ـ عرض ـ عار ـ حرام ـ حلال .. » حتى من المعجمات ! كيلا يعرف ابن أباه ، ولا يركن زوج إلى زوجته ، ولا يسلم لزوجة زوجها ، ولا يبقى كيان (لأسرة) .. فتنقلب المجتمعات إلى حياة القطيع من جديد ، كما كانت في عصورها البهيمية الأولى !

وهذا الصنف الثاني من المشتغلين بقضايا المرأة ؛ لا يفوته وهو يدعو إلى المزيد من العري والتهتك ، وإلى المزيد من الإباحيّة والتحلل ؛ لا يفوته أن يرمي بأفكاره من خلف (نظرية مادية) أو (فلسفة وجودية) أو (فرضيات فرويدية) ، أو غير ذلك من مرتكزات في الرأي ، وفلسفات في (التطور الاجتماعي) تنزع إلى(الاقتلاع) و(الاستئصال الجذري) لكل (القيم البالية)

---

(١) ديثه : جعله فاقد الغيرة على أهله .

(٢) تخليقهم بخلق الخنازير وأبرزها الاشتراكية الجنسية .

والمفهومات (العتيقة) ، في سبيل مجتمع (أمثل) .

☆ ☆ ☆

على أن المريب في الأمر ، هو كون تيار العري والتهتك تياراً عالمياً ، وليس محلياً أو عربياً فقط . لذلك لا يستغرب أن تكون هناك يدٌ خفية واحدة تحرك الأشياء من وراء ستار . ولا نجد ما يمنعنا من القول بأن تلك اليد يهودية عالمية رهيبة [١] !!

ابحث عن أصحاب شركات السينما في هوليود وأشباهها من عواصم الأفلام . وابحث عن ملاّك كبريات دور النشر والصحافة والأنباء والأزياء في معظم أنحاء العالم ، تجدهم يهوداً [٢] . واسأل عن مؤسسي الفكر المادي والوجودي والجنسي تجدهم يهوداً [٣] .

---

(١) جاء في البروتوكول التاسع من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) ما يلي : « ولقد خدعنا الجيل الناشىء من الأمميين (غير اليهود) ، وجعلناه فاسداً متعفناً . بما علمناه من مبادىء ونظريات معروف لدينا زيفها التام ، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها » . فتبصر .

(٢) جاء في البروتوكول الثاني عشر من الكتاب السابق ما يلي : « ولنعد إلى مستقبل النشر . كل إنسان يرغب في أن يصير ناشراً وكتبياً وطابعاً ، سيكون مضطراً للحصول على شهادة ورخصة ؛ ستسحبان منه إذا وقعت منه مخالفة » .

كما جاء في البروتوكول نفسه الكلام الآتي : « الأدب والصحافة هما أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين . ولهذا السبب ستشتري حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات ، وبهذه الوسيلة سنعطل التأثير السيء لكل صحيفة مستقلة ، ونظفر بسلطان كبير جداً على العقل الإنساني » !!

وفي البروتوكول الرابع عشر نقرأ هذه العبارة : « وقد نشرنا في كل الدول الكبرى ذوات الزعامة أدباً مريضاً قذراً يغثي النفوس » فتفكر !! .

(٣) ويعترف حكماء صهيون في البروتوكول الثاني بما يلي : « لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء ، ولاحظوا هنا أن نجاح دارون ، وماركس ، ونتشه ، قد رتبناه من قبل . والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد » . فهل من حاجة لأي تعليق . ولا ينسى القارىء الكريم أن (جان بول سارتر) من أم يهودية و (فرويد) يهودي و (دور كهايم) يهودي !!

وعلى أي حـال ؛ سواء أكانت اليـد الخفيـة المحركـة يهوديـة أم لا . أو كان التيار عالمياً أم لا .. فـإن هنـاك حقـائق ثلاثـاً يتوجب علينـا ألا نغفل عنهـا أبداً .

الحقيقـة الأولى : أن (التجـار والفجـار) على حـد سواء مـاضـون قـدمـاً بعناد ودأب على تنفيذ خططهم في اتخاذ المرأة أداة للإثراء الفـاحش الحرام ، أو وسيلة (لتمرير) الأفكار والآراء الخبيثة إلى عقول الناس !

الحقيقـة الثـانيـة : أن المرأة هي التي تـدفـع الثمن بـاهظـاً قبـل غيرهـا : عنـوسـة ، وبـواراً ، وهبـوطـاً في القيمـة على مبـدأ (العرض والطلب) ـ من الناحية المعنوية بشكل خاص ـ وذلك كله نتيجة حتمية لسباحتها مع التيار دون أية مقاومة تذكر ، ودون أي حساب للعواقب .

الحقيقة الثالثة : أن المجتمع برمتـه ـ رجـالاً ونسـاءً ـ يـدفع الثمن أيضـاً : انهياراً أخلاقياً ، وقلقاً ، وضياعاً ، وتفككاً أسرياً ، وخواءً روحياً .

ولا تقـولنّ : هــاهم أولاء وصلـوا إلى القمر ، ومــا منعهم من ذلــك عري نسـائهم وانحلال شبابهم . وإلا قلنا لك :

نعم لقد وصلوا إلى القمر ، ولكنهم لم يصلوا إلى الله بعد !..

ووصلوا إلى إرواء شهواتهم الجســديـة إرواء حتى الغثيـان ، ولكنهم لم يصلوا إلى طمأنينة النفس وسكينة الروح بعد !

ووصلوا إلى السحاب بعماراتهم (النـاطحـة) ، ولكنهم لم يتمكنـوا من بنـاء أعشاشٍ للمودة والسعادة القلبية بعد !

فمن أجل أن نحارب (التجار والفجار) بسلاحهم هم ، وبتركيزهم نفسه على الموضوع ذاته .

ومن أجـل (المرأة) ـ كيـلا يكـون هنـاك مـزيـد من اللعب بمصيرهـا ، والاستخفاف بمقدراتها ـ فهي الأم لنا أو الزوج أو البنت أو الأخت ..

ومن أجل المجتمع الذي هو أنت ، وأنا ، ونحن ..

ومن أجل ألا نظـلّ ـ نحن المحسـوبين على الله مـؤمنين ـ بـلا (قمر) وبـلا (الله) ، بلا طمأنينة نفس وسكينة روح ، بلا ناطحات سحاب ، وبلا أعشاش مودة وسعادة قلب ...

من أجل ذلك كله ، كانت هذه الـ (همسة في أذن حواء) ، ومـا ينـدرج معهـا من كلمـات أخر . وكان هـذا الاهتمام الخـاص منّـا (بحواء) ومشكـلات (حواء) مما ستلمسه في هذا الكتاب ، أو أنك لمسته في سواه [1] .

على أن الاهتمام سوف يكون منصبـاً أيضـاً على مشكـلات اجتماعيـة أخر : نفسية ، ورجالية ، ومهنية ، ومادية ، وخلقية .. وحتى غنائية !!

ومراد اهتمامنـا ذاك نـابع من اعتقـادنـا أن (التحرير) يبـدأ بـالنفس ، فالفرد ، فالمجتمع . ثم يترتب على ذلك تحرير كل أرض سليبـة وعرض مستبـاح وحق مغصوب ، وهـذا الاعتقـاد موازٍ تمـامـاً لاعتقـاد الأعـداء ـ ولكن بـاتجـاه مغاير ـ الـذين يرون أنّ (التخريب) يبـدأ بـالنفس ، فـالفرد ، فـالمجتمع ، ثم يترتب على ذلك احتلال كل أرض واستباحة كل حقٍ وعرض .

قـديمـاً قـالـوا : (إنّ على الـديـك أن يصيـح ، وليس عليـه أن يُطلع الصبـاح) .. وهـا نحن نصيح في جـوف ليـل ، نعلم يقينـاً أنـه كثيف الظلمـة رهيب ! ولكنّ الأمل بـالله كبير ، أن يطلع الصبـاح قريبـاً .. فتسطـع شمس الحق ، وينكشف الزيف لقومٍ لا يبصرون . ومـا ذلـك على الله بعزيز ، وهـو مستعاننا على ما يمكرون .

---

(١) ارجع إلى مجموعتنا القصصية (ولهان والمتفرسون) ومجموعتنا الأخرى (سلة الرمان) .

همسة في أذن حواء

سمعته يقول : رحم الله أيام (الشوال)[١] ! لقد كانت أيام (ستر وصون وعفاف) !!. ومن يدري ؟ فقد نترحم عما قريب على أيام (الميني جب) هذه ، بعبارات أكثر تحسراً ، وكلمات أبلغ تأثراً ، فنقول : سقى الله أيام (كذا) فقد كانت أيام (مروءة وطهر وحياء) ؟!..

* * *

تردد ذلك في خاطري وأنا أقطع الطريق إلى الفندق ، في إحدى مدننا التي لم تتطور كثيراً بعد .

لقد كان يخيل إليَّ في كل مرة أجوز فيها طريقي أنني في معرض للحوم البشرية ، إن لم أتوهم أنني في مسلخ كبير ! أكوام من اللحوم ، أعمدة من اللحوم ، تتحرك بكاملها على امتداد الشارع غدواً ورواحاً !!

لم تكن تلك اللحوم محمولة على عربات البلدية ، ولا على أكتاف القصابين ، إنها محمولة على سوق الغواني ، وتتحرك على أقدامهن . بل إنها لحومهن ذاتها هتكن الستر عنها : صدوراً ، ونحوراً ، وظهوراً ، وزنوداً ، وآباطاً ، وأفخاذاً ، وثدياً !!.

إنها معروضة للجميع بلا استثناء ، وبلا ثمن ، فليس عليها « تسعيرة » فجميع الأعين تلتهمها مجاناً وبلا حساب !!.

ولم أتمالك لساني ذات مرة عندما أخذ يردد : (يا بلاش) ما هذا الرخص ؟ ما هذا الهبوط في الأسعار ؟ ما هذه المضاربة المسعورة الهائلة في

---

(١) هو نوع من الزي النسائي الفاضح مهد لظهور ما هو أفضح منه (الميني جب) .

العرض [١] ؟؟

من ذا يقول : إن أسعار اللحوم في ارتفاع ؟ من ذا يدّعي ذلك ؟ إنه إذن لجهول . أو إنه يعني لحوم الحيوانات والبهائم من أمثال الأغنام والأبقار والخنازير . أما لحومهن الغضة ، أما لحوم بنات حواء ، فأسعارها في هبوط منقطع النظير !! .

☆ ☆ ☆

ومن عجب فبنت حواء المعاصرة ولاسيما المثقفة ، تغضب ـ لدى النقاش أو الحديث ـ أمام من يشعرها بأنها « جنس » وتحسُّ بالمهانة ، وتثور إذا ما خوطبت على أنها عنصر « متعة » في المجتمع !!

نعم إنها تغضب ، وإنها تثور لذلك ، وقد تتهم الطرف الآخر بالجهل ، والتأخر ، والتزمت ، وبالجنون أحياناً ، وربما بالعمالة لإسرائيل !!

وأنا بدوري لا أعجب من تلك الثورة وذلك الغضب بحد ذاتيهما ، فالمرأة هي نصف المجتمع ، وهي إحدى دعامتيه الرئيسيتين ، وهي مربيته وراعيته وهي أمه . وهي صنو الرجل ـ بشراً وإنساناً ـ بل هي من نفس الرجل كما قال تعالى : ﴿ ومِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِن أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إلَيْهَا ﴾ [٢] وهي بالتالي معين الرحمة ، ومنهل الحب ، ومورد الحنان الخالد ... وإنما أعجب ، وأعجب حتى الذهول من هذا التناقض المريع بين سلوكها من جهة وقولها من جهة أخرى !!.

وإلا فما معنى أنها لا تعرض نفسها ـ للمجتمع بشكل عام وللرجل خاصة ـ إلا جسداً ولحماً ؟؟

---

(١) يجوز فتح العين وكسرها والكسر أفصح !

(٢) الآية : ٢١ من سورة الروم .

وما معنى أنها لا تفتأ سنة بعد سنة تتصدى للجنس الآخر بثياب مازالت تقصر وتقصر ، وبإغواء مازال يتدنى في المستوى ويتدنى ؟!.

ثم ما معنى هذا « الطرح » المزري الذي تطرح به نفسها على الجنس الآخر ، وهي تمشي عارية إلا من ستارة الشيطان ؟؟!

أليس هذا يعني أنها تثبت على نفسها التهمة ، وتؤكد بعملها صحة الادعاء القائل بأنها : (جنس) وحسب ؟ وأنها (متعة) وكفى ؟ وأنها جسد ولحم وفتنة وإغواء ؟؟

ماذا أبقت حواء المعاصرة لفتاها المنتظر ؟ ماذا تركت لزوجها ؟ بماذا احتفظت لليلة عرسها إذا ما قدّر لها الزواج ؟؟ أنا لا أحسب أنها ستفاجئه بشيء ! ولا أحسب أن منصفاً يخالفني في أن الخطيب والزوج والعريس وبائع الفول والحمال وماسح الأحذية ، جميعاً أصبحوا شركاء في أية امرأة ، تطرح مفاتنها هذا الطرح الرخيص ، وتعرض جسدها هذا العرض الصارخ ، لكل قائم أو قاعد ، أو سابل أو عابر ، أو بر أو فاجر ، يتمشى في شارع ، أو يتنقل في حي ، أو يبيع في حانوت ، أو يجلس على قارعة طريق !!.

قد تتفاوت الأسهم ـ أسهم الشركة ـ بين أولئك كثرة وقلة ، إلا أن الشركة قائمة لا ريب !!

وإذا تركنا الخطيب والعريس والزوج جانباً ، فإننا نسأل :

ماذا أبقت المرأة المعاصرة لوطنها من وقتها ومن اهتمامها ؟ ثم ماذا أبقت لبيتها وولدها ـ إن كان لها ولد ـ إذا كانت جميع اهتماماتها وأوقاتها منصرفة إلى الزينة والإغواء ، والاستعراضات وملاحقة دور الأزياء في « التسريحة » واللباس والحذاء ؟!

أما نحن ، ومعنا كل ذي عينين ، فلا نحسب أن فتاة من هذا الطراز من

فتيـات (الميني أو الكروجب) ، مهما رقت ثقـافتهـا ، وفـارت (تنـانير) وطنيتها ، لا نحسبهـا أهلاً لتحرير وطن ، أو تربيـة طفـل ، أو إدارة بيت ، فضـلاً عن رفـع رأس وطن أصيب بكارثـة [١] ، وابتلي بعـدو لا أمكر ولا أخبث ، ولا أيقظ ولا أشرس ، ولا أكثر جدية منه .

وبكل بسـاطـة نقول : إن « امرأة » لا هم لهـا إلا التلقي عن دور الأزيـاء ـ ودور الأزياء جميعاً إلا ما ندر ـ هي دور وراءها اليهودية ، تغذيهـا وتبنيهـا وتنشطهـا ، داعيـة لهـا في الصحف والسينمـا والمجـلات والتلفـزيـونـات و(الكاتلوكات) ، بقصد الإلهاء وبقصد الإفساد ، إفسـاد أخلاق الجنس البشري كافة ، ولا سيما المسلمين الأعداء المباشرين . نقول : إن « امرأة » من هذا النوع هي أتفه من أن تكون زوجة أو أمـاً أو مجـاهـدة ، تتحسس مشكلات أمتهـا ، وتنهض بأعباء مجتمعها وبني قومها ، وتسعى لغسل العار .

* * *

همسة أخيرة أريد أن أضعها في أذن حواء .

إلى أين « يا حواء » ؟! أما لهذا الانحدار من آخر ؟! أما لهذا التبـذل من نهـايـة ؟! أعبثـاً والأمر جـد ؟ ألهـواً والعـدو متربص ؟! أمـزيـداً من العري والتهتـك والانسفـاح برخص ، والتـدني في مستوى العرض في سـوق اللحـوم ، وأنت التي تدفعين الثمن باهظاً غالياً ؟!.

في تصـوري : إن أرقى مستـوى تحلمين بـه أو تتـوقين إليـه ، وأن المجتمـع المتحرر الأمثل الـذي تـدغـدغـك الآمـال في بلوغـه هو مجتمع بـاريس مثـلاً أو لندن ، أليس كذلك ؟

---

(١) نشر المقال في آب ١٩٦٨ أي بعد هزيمة حزيران بحوالي عام .

اسمعي إذن ، اسمعي ما كتبته واحدة من بنـات جنسـك ـ وهي محررة في مجلة عربية بيروتية واسعة الانتشار ـ لقد كتبت من فرنسا إلى مجلتها ذات مرة تقـول فيما تقـول : « إن ثمن حبـة الـدراق في لنـدن ، أو عنقـود العنب في باريس ، يفوق ثمن امرأة !!.. يا للرخاء » .

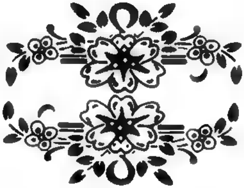

صرخة في وجه آدم

كأني « بحواء » ـ وقد قرأت « الهمسة » الخاصة بها في عدد « الحضارة » الماضي ـ . كأني بها تبحث عن شريك لها في المسؤولية ، مسؤولية خروجها عن طريق الحشمة والصون ، إلى متاهات العري الفاضح ، والتبذل المقرف .

بل لكأني بها تشير بأصبعها إلى « الرجل » متهمة ومغاضبة ، ولسان حالها يقول لي : ولماذا لا تهمس في أذنه كما همست في أذني ؟! لماذا لا تصارحه بالحقيقة كما صارحتني ؟! ولماذا لا تقول له :

إن المرأة ـ أياً كانت ـ لا تعدو أن تكون : بنتاً للرجل ، أو أختاً ، أو زوجاً . وكما أن « الناس على دين ملوكهم » فكذلك « النساء على دين رجالهم » ، فالمسؤولية إذن هي مسؤولية الرجل : أخاً ، أو أباً ، أو زوجاً ، فلو شاء لحزم أمره ، وستر أهله ، وحفظ عرضه . لكنه لا يشاء ولا يبالي ، بل إنه أخذ يشجعها على ذلك ، حتى بات يتيه بعريها ، ويباهي بتبذلها وتبرجها .

ـ فكم من أخٍ يجوب الشوارع إلى جانب أخته الحاسرة المتهتكة ، يماشيها كما يماشي الخليل خليلته أو (القيس) (ليلاه) ؟!..

ـ وكم من أب يتخطّر في الحدائق والأسواق والطرقات ، ومعه بناته الكاشفات المتزينات المائسات ، كما يتخطر الأمير مزهواً بملكه ، مختالاً بعنفوانه ؟!

وكم من زوج يتأبط ذراع زوجته ، متنقلاً بها بين النوادي والمحافل الساهرة والمسابح ، وهي في تمام زينتها وكمال غوايتها وإغرائها ، رافع الرأس من عزة ! منتصب الهام من فخار ! أين منه فخار أكاسرة الفرس ، وأباطرة الإغريق

والرومـان ، الـذين كانوا يمرون وأكاليل الغـار على رؤوسهم ، من تحت أقواس النصر ، وهم عـائـدون من معركـة مظفَّرة ، بين صفـوف الجنـد وهتـافـات الجماهير ؟!.

والمرأة بعد ذلك كله هي التي يفترض فيها (العَرْضُ) فـالرجل هو المختص (بـالطلب) ، وهي لهـذا السبب على الأقـل ، مضطرة لمسـايرتـه على هـواه ، والتكيف ـ في مظهرها وملبسها ـ بحسب متطلباته ومزاجه . فلماذا « الهمسة » في أذني أنا وحدي ؟!.

* * *

كلام بـديع ، وكلام معقول ، وحجج قويـة لا ريب . إنهـا حجج تعكس الـوجـه الثـاني للمشكلـة ، بـل للمـأسـاة مـأسـاة المرأة (المتعريـة) في مجتمعنـا الإسـلامي ، المرأة التي سلكت كل طريـق وعر ، وركبت كل مركب خشن ، يخيـل إليهـا معـه أنـه هـو الـذي يجـذب إليهـا الأنظـار ، ويرضي عنهـا ذوق الرجال !.

وإنا لنقول : نعم إن الرجل مسؤول ، وإنه لمدان إدانة تـدمغـه ، وتـأخـذ بتلابيبه دون أن يكون له فكاك !

وإن هذه الإدانة لتخولنا أن نصرخ في وجهه صراخـاً ، بـدلاً من أن نهمس في أذنه همساً ، إنها تبيح لنـا أن نسـألـه بـأعلى صوتنـا وملء حنـاجرنـا : أين الرجولـة ؟ أين المروءة ؟ أين النخوة العربيـة ؟ أين الغَيْرة الإسلاميـة ؟ أين التقاليد الشرقية ، أين حياء المؤمن ؟ أين خجل الإنسان ؟!

ماذا أصابكم أيها الشباب ؟ مـاذا دهـاكم أيهـا الآبـاء والأزواج ؟! أإلى هـذا الحضيض تـدنيتم ؟! إذا كنتم قـد فقـدتم نخـوة العربي ، وغيرة المسلم ، وحيـاء المؤمن ، وخجل الإنسـان ، فماذا بقي لكم ؟!!.

الله عز وجل ستر إناث البهائم وَجَمّلها بالصوف أو الشعر ، بالريش أو الوبر . أما إناثكم فقد خلع عليهن ثوب الحياء ، فإذا كنتم قد رضيتم لهذا الثوب أن يهتك ، وإذا كنتم تستجرُّون لابساته إلى أن يمزقنه ويرمينه ، فأين إناثكم من إناث البهائم ؟!. وأين أنتم من المخلوقات ..!.

إن الرجل الذي لا يغار على أخته أو بنته أو زوجه ، هو في عرف أمتنا وفي شِرعة ديننا وتقاليدنا (دَيُّوث) ، محقور من البشر ومحروم من رحمة الله !. قال رسول الله ﷺ :

« مكتوب على باب الجنة : أنت حرام على البخيل ، ومانع الزكاة ، والدّيُّوث » . قيل يا رسول الله : وما الديوث ؟ قال : « الذي يرى القبيح على أهله ويسكت » .

وعلى هذا فالذين لا يستحيون ولا يغارون هم دخلاء على أمتنا ، امَّعاتٌ في أوطاننا ، هم سفراء القيم المتفسخة المنتنة للحضارة الغربية في بلادنا ، وحاشا أن تكون « الدياثة » من طبائع رجالنا أو أخلاق شبابنا !.

* * *

على أننا ونحن نُحمّل الرجل هذه المسؤولية الضخمة كلها ـ وهو يتحملها لا ريب ـ لابد وأن نتذكر ـ ولو من قبيل تداعي الأفكار ـ مقولة الجدل البيزنطي الشهيرة : (البيضة من الدجاجة ، أم الدجاجة من البيضة) . بمعنى : المرأة من الرجل . أم الرجل من المرأة . أو بمعنى آخر : الرجل هو الذي استجر المرأة إلى مواقع الخلاعة وقلة الحياء . أم أن المرأة هي التي أفسدت ذوق الرجل بعامل الإلف والعادة . أو بمعنى أدق : من المسؤول أصلاً . المرأة أم الرجل .

أما البيزنطيون ـ فيا نعلم ـ فقد ظلوا قديماً عشرات السنين مختلفين ، فمنهم

من يقول بأن الأصل هو الدجاجة ، ومنهم من يدَّعي بأن الأصل هو البيضة ، وأما نحن فلن نختلف ، البيضة عندنا من الدجاجة والدجاجة من البيضة . أي أن المسؤولية يتحملها الرجل والمرأة مجتمعَيْن ، فهو مسؤول ، وهي مسؤولة معه أيضاً .

إلا أن مسؤولية الرجل قد تكون (أدبية) فقط ، وبعبارة أدق (تحريضية) . أما مسؤوليتها هي فإنها (أدبية مادية) في آنٍ واحد .

الرجل لا يمانعها في أن تنحط ، أو إنه يغويها بمزيد من العري والتبرج !. بينما هي تستجيب لهذا الإغواء على الصعيد (الذهني النظري) من جهة ، وعلى الصعيد (التطبيقي التنفيذي) من جهة ثانية .

ثم علينا ألا ننسى حقيقة واقعة ، مُرَّة ، مؤسفة ، تسود مجتمعنا الراهن . وهي أن الرجال الذين يمارسون (القَوامة) في بيوتهم وعلى نسائهم تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ** ﴾ إن هؤلاء الرجال أو إن هؤلاء (الذكور) باتوا قلة نادرة جداً !! في حين أن نساء العصر هن اللواتي يسيطرن على أزواجهن ، وبالتالي على أبنائهن وبناتهن . والبنت سر أمها ، تتخلق بخلقها ، وتنقاد لأمرها في كل ما تسلك أو تلبس أو تخلع . وكيف لا يكون ذلك وأبوها بين يدي أمها بمثابة (العبد المأمور) ؟!.

وما أحسبني مبالغاً في القول إذا قلت : إن المرأة (الجنس) هي إحدى حاكمين اثنين يحكمان العالم بأسره : (المرأة والمال) . ولا يخفى أن الحاكم هو أعظم مسؤولية من (الرعية) .

وإذاً : فلا تعجبي (يا حواء) إن أنت خوطبت قبل الرجل (همساً) أو صراخاً . فالقضية قضيتك ، والمأساة مأساتك أنت التي تملكين زمام أمرك فضلاً عن زمام غيرك . أنت التي ترقصين في وليمة ذبحك ولا تدرين !!.

إن (جميلاً) أحب ذات يوم (بثينة) ، وإن (قيساً) أحب ذات زمن (ليلاه) . لقد كان هذا الحب وسيبقى على مر الأزمان مضرب الأمثال في الطهر والإخلاص ، ونموذجاً فذاً في التفاني ، تفاني المحب في ذات المحبوب .

ولكن اليوم ، هيهات . فليس من (قيس) يسمع ، ولا من (جميل) يجيب . إن « المبذول » مبخوسٌ لا محالة ، وإن « الممنوع » مرغوب ، وتلك طبائع البشر . إن الرجل مسؤول ، وإن الرجل شريك . ولكنه شريك له (الغُنْم) وليس عليه (الغُرْم) ، يأكل من (الربح) ولا يدفع من (الخسارة) وهذا هو واقع الحياة المؤلم اليوم !!.

فهلاّ فهمتِ ، هلا صحوتِ يا (حواء) ؟؟. وهلا أفقتم . هلا انتخيتم يا (رجال) ، يا آباء ، يا إخوة ، يا أزواج ؟؟!!.

مع الأغنية وسيّدة الغناء العربي

مع الأغنية

إن الترويح عن القلب بشكل أو بآخر ، هو ضرورة من ضرورات البشر ، ولا سيا أولئك الذين يتعبون ويصرفون الجهود الكبيرة ، في معمل أو مخبز أو مزرعة ، أو يرابطون في خندق .

والترويح عن القلب ، ليس في حقيقته إلا نوعاً من تهيئة النفس لمزيد من التحمل ، ونوعاً من شحذ الهمة لمزيد من الدأب والإنتاج .

على أن للترويح وسائله المتعددة بتعدد الحواس الخمس على الأقل . فهناك الترويح البصري كمشاهدة المناظر الطبيعة ، والشمي كمعاشرة الأزاهير والأوراد ، والذوقي كتناول أنواع من المأكولات أو المشروبات ، والحركي كممارسة الرياضة بأنواعها ، والسمعي كالاستماع إلى الموسيقى والغناء . ولعل أقدم أنواع الترويح ، وأبعدها غوراً في نفوس (المخلوقات) ، ولا نقول البشر ، هو الترويح السمعي . ذلك أن (المزمار) هو من لوازم الراعي منذ القرون الأولى ، فالأغنام ترتاح إلى صوته ، وتجتمع إليه ، (والحداء) وسيلة أزلية من وسائل حث النوق عل اجتياز الصحارى بأقل قدر من الملل ، ناهيك عن الأبقار التي يزداد إدرار ضروعها إذا ما حلبت على أنغام الموسيقى (١) . وإذا كان ذلك هو حال الحيوان ، فكيف يكون حال الإنسان ؟! والإنسان كتلة من العواطف والمشاعر والأحاسيس ! الإنسان ولا شك هو أحوج المخلوقات إلى الترويح ، وأكثرها طلباً له ، ولا سيا إنسان العصر الحديث الذي كثرت الهموم من حوله ، وتعقدت الحياة بين يديه .

---

(١) هذا ما لاحظه أصحاب المداجن الحديثة .

ومن هنا كان إقباله الشديد على وسائل الترفيه المختلفة ، وبشكل خاص على وسائل الترفيه السمعية ، لأنها أيسر الوسائل كلفة ، وأقربها متناولاً ، وأقلّها عناء . كالمذياع ، ومسجلات الصوت ، والتلفزيون ـ الذي يشترك فيه البصر مع السمع ـ وغير ذلك من وسائل ..

وإذا ما تساءلنا عن أعظم آلة موسيقية على الإطلاق ، كان الجواب بالإجماع : « هي حنجرة الإنسان » . نعم هي حنجرته ، تلك الآلة التي صنعتها يدُ الله وقالت لها : كوني فكانت . ثم شاء الله سبحانه أن يشرِّف تلك الآلة بالتشريف الذي تستحقه ، فقال : (للصوت الإنساني) في محكم كتابه : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ . كما أنَّ رسوله الكريم أبت عليه فطرته السليمة ، وأبى عليه الإلهام الرباني أن يدعو إلى الصلاة بقرع جرس ، أو بضرب طبل ، فكان الأذان ، وكانت « الله أكبر » يجلجل بها صوت الإنسان .

نخلص مما سبق إلى أن إقبال الناس على سماع اللحن والتلذذ بالنغم ، ليس بدعاً من التصرف والسلوك ، وإنما هو حاجة حياتية ملحة في كثير من الأحيان ، وخاصة بالنسبة للإنسان المعاصر . وإذا كانت كذلك بالنسبة للإنسان الفرد ، فهي كذلك بالنسبة للأمم والشعوب على حدٍ سواء .

ونخلص مما سبق أيضاً إلى أن الصوت النديّ هو نعمة إلهية مقصودة لذاتها ، وليست عبثاً ، وحاشا لله أن يعبث .

ونحن بعد أن خلصنا إلى ما خلصنا إليه ، علينا ألا نستغرب أبداً ما للأغنية والغناء من دور كبير ، وتأثير شديد في شعور الأفراد والشعوب أو في (لا شعورهم) ، وعلى مختلف الأعمار والمستويات والأجيال .

فبالأغنية [1] يمكن أن نُنسي الناس همومهم وأحزانهم ، وبالأغنية نستطيع

(١) واضح أنه ليس من مقاصد هذا المقال أن يتعرض للأحكام الفقهية في موضوع « الغناء » . فمن =

أن نزيد من تعلق الناس بأوطانهم ، وعن طريق الأغنية يمكن أن نسمو بالقيم الجمالية التي اصطلح عليها مجتمعٌ ما ، كما يمكن أن نهبط بتلك القيم أو نشوّهها .

وبالأغنية قد نلهب شعوراً يكاد يخبو ، وقد نستثير نخوة توشك أن تموت . فنقلب الهزيمة نصراً ، والذلة استئساداً ... كما يمكن بالأغنية أن نخدّر إحساساً ، ونثير شهوة محرمة ونسمم ضميراً ، ونلهي شعباً بأكمله عن التفكير بأقرب خطرٍ منه يتهدده ، وبأسوأ مصير ينتظره .

إنَّ (المارسيلييز) - النشيد الوطني الفرنسي - لا يعرف له ملحن ، لقد انبثق لحنُه من صميم الجماهير الثائرة في عُرام الثورة الفرنسية الشهيرة . فكان حادي الجماهير إلى مزيد من الثأر من جلاديها ، وكان ملهب مشاعرها ، فأمعنت تحطيماً بمعاقل الظلم والطغيان .

وإن نشيد (الله أكبر) الذي استُوحي لحنه من صميم المعركة ، معركة مصر مع دول العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ ، كان له في حينه فعل السحر في نفوس المقاتلين ، ولعله ما يزال يحتفظ إلى الآن بشحناته الكهربائية المثيرة ، التي تملأ قلب المقاتل إيماناً بالنصر ، وتدفعه نحو الاستشهاد بلا تردد .

فالأغنية إذاً سلاح بالغ الأهمية والخطورة ، ولا نقول : إنه ذو حدين وحسب ، بل إنه ذو حدود كثيرة ، منها المحيي ، ومنها المميت . منها المطرب ، ومنها المكرب . منها ما يصلح لأيام الرخاء والنعيم ، ومنها ما يصلح لساعات الحزن والغم . ومنها ما لاغنى عنه في أيام الحرب وسني الشؤم والهزائم . ومنها ما هو خاص بالمترفين البطرين . ومنها ومنها الكثير ...

على أن أخطر ما في الأمر ، هو استخدامنا لهذا السلاح استخداماً خاطئاً ،

= أراد معرفة الحكم الشرعي في الغناء فليرجع إلى كتب الفقه ، وخاصة منها ما كتبه الشيخ محمد الحامد رحمه الله والشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله .

كأن نزغرد بين أيدي المنكوبين ، وننوح أمام السعداء . أو كأن نضرب على وتر الحس والشهوة والتشبث بالحياة ونحن في حالة حرب ، أو نُطلق الأنغام الصاخبة المثيرة ونحن في سلم وأمان ، وفي بحبوحة من العيش ، ورغدٍ من الحياة .

مع سيدة الغناء العربي

والآن ، قارئي العزيز ، تعال معي إلى (سيدة الغناء العربي) أم كلثوم ، لنرى كيف استخدمت ذلك السلاح ؟ كيف استخدمت تلك الموهبة الربانية ، والصوت الفريد . لنسأل : هل وضعته في موضعه المناسب دائماً ، واستخدمته دونما خطأ في التقدير . أم ماذا .

ونظراً لأن أغانيها تعد بعشرات العشرات ، ولأن تلك الأغاني موزعة على حقبة « زمنية » طويلة تقارب نصف القرن ، فإننا سنكتفي بالوقوف عند نتاجها الفني الذي قدمته في الفترة الأخيرة أي (قبل النكسة الحزيرانية وأثناءها ، ثم خلال حرب الاستنزاف ، وفي فترة وقف إطلاق النار والاستعداد للجولة الرابعة) .

* * *

ليس خافياً عليّ أن مدّ اليد جرداء إلى خلية نحل ، في نهار ربيع مشمس ، أهون من مدها للكتابة في موضوع نقدي يتعلق بسيدة الغناء العربي .

ذلك لأن عشاق صوتها على جانب من الكثرة في العالم العربي ، وهم على جانب من المغالاة في التعصب لها ، لدرجة يُعتَبر معها مغامراً بعرضه ، ومجازفاً بحياته كلُ من يرميها ولو بوردةٍ أو زهرةِ ياسمين ، فكيف بمن يبتغي ما هو أكثر من ذلك ؟!

على أني أود أن أطمئن العشاق سلفاً ، إلى أن مقالي هذا لن يتعرض

لنقدها فنياً ، فهذا ليس من شأني ولا من اختصاصي ، وإنما الذي يعنينا هنا أن نرصد في عدد من أغانيها الأخيرة ، تلك التي بدأت تطلع علينا بها منذ أوائل الستينات ـ ما يمكن أن نسميه بظاهرة :

« التغييب الذهني والحث على نهب اللذات واستعجالها »

إن المتتبع لمعاني تلك الأغاني ، ليخرج بنتيجة واضحة وضوح الشمس في حزيران ، مؤداها أن تلك الأغاني تحوي قاسماً مشتركاً من الدعوة إلى اقتناص اللذة ، وتعميق روح الفردية والذاتية في حياة الإنسان العربي ، ومخالسة الزمن ، بقصد العبّ من متع الحياة أكبر قدر ممكن في أسرع وأقل وقت ممكن . بل إنها لتدعو إلى تخليد اللحظة الواحدة ـ لحظة الوصال أو المضاجعة ـ في نفس الوقت الذي تدعو فيه إلى غيبوبة ذهنية كاملة عن الوجود ، وإلى تجميد للزمن بأكمله ، ولنقرأ لها هذا المقطع :

« يلّلا نعيش بعيون الليل
ونقول للشمس تعالي تعالي
بعد سنة مش قبل سنة »[١] !!

أمّا (الحب الصادق) فدليله عندها ، الإحساس بعدمية الزمن ـ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ـ باستثناء اللحظة ، لحظة انقداح شرارة الحب والهوى بين المحب والحبيب :

« كنت ولا امبارح فكراه
ولا عندي بكره استناه

(١) من كلمات أغنيتها (ألف ليلة وليلة) .

ولا حتى يومي عيشاه .. يا حبيبي »[١]

وإذا ما مضينا إلى أغنية أخرى ، وجدنا هناك إنذاراً للحبيب باقتراب تبدّل الدار ، وتحوّل الحال . وسمعنا ضراعة مؤثّرة بين يدي المحبوب ، أن يجود على محبه بنعمة الوصل (الآن .. الآن .. الآن) قبل فوات الأوان . ولنستمع إلى هذه اللازمة :

سوف تلهو بنا الحياة وتسخر   فتعال أحبك الآن أكثر[٢]

بل إن (الأمر) ليصدر في النهاية إلى الزمن أن يكف عن الدوران ، ريثما يرتوي الغليل ويشفى الشوق :

« ... هذه ليلتي فقف يا زماني »

وأما في قصيدة (الأطلال) ، فما أحلى النوم ! وما أعذب الغياب عن الوجود ! بل ما أبشع وما أقسى أن يستيقظ الهائمون الحالمون ويفيقوا !!

وانتبهنا بعدما زال الرحيق   وأفقنا ليت أنّا لا نفيق
يقظة طاحت بأحلام الكرى   وتولّى الليل والليل صديق

والمعنى نفسه نجد مثيلاً له في أغنية (أمل حياتي) إذ تقول :

وسيبني أحلم سيبني   يا ريت زماني ما يصحنيش
وبعد هنايا معاك يا حبيبي   لو راح عمري أنا ما اندمش

على أن الاستغاثة اللاهفة للهرب من الواقع ، والابتعاد عن الوجود ، نجدها في هذه الضراعة الشهيرة :

« وخدني بحنانك خدني .. عن الوجود وابعدني .. عن الوجود وابعدني » .

---

(١) الأغنية السابقة .

(٢) أغنية (هذه ليلتي) .

وأما ماذا يكون من أمرهما بعد ذلك ـ المحب والحبيب ـ ؟ أن يصبحا على الحب ويمسيا عليه ، ولا شيء سواه البتة :

« عـالحب تصحى أيـامنـا   عـالشـوق تنـام ليـالينـا »

وإذا ما تبادر إلى الذهن ، أن نسألها لماذا يعيشان إذاً ؟ جاءنا الجواب حالاً :

« عايشين لليل والحب وبس .. لليل والحب وبس »

أما بماذا يكون القوت عند الجوع ؟ وأين يكون اللجوء عند التشرد ؟ وما معنى الحياة ؟ فذلك كله تجيب عليه بهذه الكلمات :

« يا حبيبي الحب حياتنا .. وبيتنا .. وقوتنا »

ولعل كلّ ما سبق من (شعارات حياتية) ما هو إلا استجابة أمينة للنصائح الغالية ، التي طلعت بها على الناس ـ مع فجر النكبة الأولى في الأربعينات ـ في رباعيات الخيام الذائعة الصيت ، والتي منها هذه (الترتيلة) :

لا تشغل البال بماضي الزمان   ولا بآتي العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته   فليس في طبع الليالي الأمان
غدٌ بظهر الغيب واليومُ لي   وكم يخيب الظنّ في المقبل

فها هنا الدعوة البكر للغيبوبة الذهنية عن الزمان بأكمله (ماضياً ومستقبلاً) .. وها هنا الموعظة الخالصة لاقتناص اللذة عاجلاً قبل فوات الفرصة ، التي ربما لا تجود بمثلها الحياة . كل ذلك بثوب من الحكمة أنيق ، وبإغراء شاعري يضرب على وتر المتعة والهوى بدهاءٍ كبير .

وهذه هي تتمة الترتيلة :

أطفىء لظى القلب بشهد الرضاب   فإنما الأيام مثل السحاب
وعيشنا طيف خيال فنلْ   حظك منه قبل فوات الشباب

والآن ، ماذا يترتب على وجود تلك الظاهرة ، ظاهرة (التغييب الذهني والحث على نهب اللذات واستعجالها) بعد أن وضعنا أيدينا عليها بما لا يدع مجالاً للشك ، في عدد وافرٍ من أغانيها [١] ..

لقد كان من الطبيعي - وهي معبودة الجماهير ، كما يحلو للكثيرين أن يلقبوها - أن تتحول تلك المعاني والعبارات ، إلى شعارات يرددها الكبير والصغير بالشعور أو اللاشعور . وأن تتحول بالتالي إلى أفكار تعيش في الضمائر ، ولا سيما ضمائر الأجيال الناشئة والشباب والمراهقين .

حتى لكأننا نتصور جوعهم الهادرة ، وقد هتف فيها هاتفها كما يفعل قوّاد المظاهرات والمسيرات :

لمن أنتم ؟

فيأتيه الجواب بلسان واحد : « لليل والحب وبس » .

- لماذا تعيشون ؟ فيكون الرد :

---

(١) إن أشهر أغاني الفترة التي نرصد من خلالها « الظاهرة » هي أغاني : (سيرة الحب - أنت عمري - أنت الحب - أمل حياتي - فات الميعاد - فكروني - بعيد عنك حياتي عذاب - حديث الروح - الأطلال - ألف ليلة - راجعين بقوة السلاح) وأما خلال فترة حرب الاستنزاف وما بعدها (نهاية ١٩٧١) فأبرز ما ظهر لها : (هذه ليلتي - ودارت الأيام - أقبل الليل - اسأل روحك - القلب يعشق كل جميل - ظلمنا الحب - الحب كده - أغداً ألقاك) والمتأمل في هذه الأغاني كلها ، يجد أن واحدة منها فقط كانت وطنية وهي (راجعين بقوة السلاح) ولم تكن فأل خير على أية حال ، واثنتين دينيتان وهما : (حديث الروح - القلب يعشق كل جميل) وما عدا ذلك فكله « تغييب للذهن ، ودعوة لانتهاب اللذات) .

ـ « الحب حياتنا ، وبيتنا ، وقوتنا . الحب حياتنا ، وبيتنا ، وقوتنا » .

ـ اليهود على الأبواب فماذا أنتم فاعلون ؟ فيجيب الصدى :

« لا تشغل البال بماضي الزمان   ولا بآتي العيش قبل الأوان »

نعم هكذا تفعل (السيدة) فعلها ـ عن طريق عدد غير قليل من أغانيها ـ في عقول الأجيال وضمائر الأجيال ، في وقت لا أحسب أن أمتنا قد مرّت بأخطر منه على حياتها ووجودها بأكمله ، منذ طوفان التتار ، مروراً بالوباء الصليبي ، وإلى الآن .

ومما يلفت النظر بحق ، أن جميع الأغاني التي اقتبسنا منها الشواهد السابقة ، قد صدرت قبيل الهزيمة الحزيرانية النكراء أو بعدها ، باستثناء (رباعيات الخيام) التي واكبت ـ فيما نذكر وكما نوهنا آنفاً ـ نكبتنا الأولى في فلسطين سنة ١٩٤٨ ، فتأمل أيها القارىء الكريم ، أليس ذلك مما يدعو إلى الذهول ؟!

ولكي تذهل حتى الغيبوبة ، وتدرك الدور الخطير الذي تلعبه (المعبودة) في مقدرات الأمة العربية وأجيالها على مختلف الأعمار والمستويات ، إذ أنها استطاعت بمن وراءها أو بمفردها أن ترضي أذواق الجميع على مدى نصف قرن من الزمان ، بمن فيهم مراهقو السبعينيات وهي بنت السبعين . نعم . لكي تدرك ذلك الدور الخطير الذي تلعبه ، أو الذي أرادوا لها أن تلعبه ـ في أحسن الاحتمالات ـ اذكر معي هذه الواقعة الشهيرة :

. مذيعٌ سابق يملك أفظع شدقين وأضخم حنجرة عرفت لأمثاله ، هذا المذيع ، بل هذا المدير لأكبر إذاعة عربية آنئذٍ ، لم يجد حافزاً يحفز به همم عشرات الألوف من جندنا المرابطين في خنادقهم ، لخوض المعركة الحزيرانية المأساوية

مع عدونا اللعين . لم يجد حافزاً يحفزهم به على الاستشهاد ، أو مثلاً أعلى يؤجج به فيهم روح الحماسة وأداء فريضة الجهاد . لم يجد سوى أن يعدهم « بحفل ساهرٍ تحييه لهم (السيدة) في تل أبيب » أجل ضرب لهم موعداً معها في حفل ساهر في تل أبيب !! .

• ولكي تأخذ فكرة عن أجواء حفلاتها ـ إن كنت من الجاهلين ـ فاقرأ معي ما يكتبه شاهد من أهله ، الروائي المصري المعروف نجيب محفوظ في وصف تلك الحفلات على لسان أحد أبطاله : « ليلة أم كلثوم ، ليلة الخمر والطرب ، فيها تزحزح النقاب عن أشياء من خبايا النفوس »[١] .

ويقول على لسان بطل آخر :

« ليلة أم كلثوم ليلة متوجة حتى في بنسيون ميرامار ؛ أكلنا وشربنا وضحكنا . خضنا في كل موضوع حتى السياسة ، لكن الخمرة نفسها لم تستطع أن تقهر عاطفة الخوف »[٢] .

• ولكي لا تقول إن هذا الوصف ، وصفٌ روائي ـ وهو وصف حيٌ على أيّ حال ـ فاسمع ماذا يقول الوصف الواقعي الأمين لحفلة قامت بها في لبنان ، منذ عام فقط ، أي في صيف سنة ١٩٧٠ ـ لاحظ التاريخ ـ يقول الأديب السوري الدكتور عبد السلام العجيلي[٣] :

« فالجنود يتولون التفتيش عن السلاح وعن قناني الخمر ، لئلا يتكرر ما حصل في حفلة أول أمس . قلت له : وماذا حدث في حفلة أول أمس . قال : شرب الحاضرون مما جلبوه معهم من خمر ، وأطلقوا الرصاص في نشوتهم

---

(١) من رواية ميرامار (ص ١٤٩) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٠٠) .

(٣) من مقال له في (الأسبوع العربي) عدد ٥٨٨ عنوانه (تحت سماء بعلبك) .

بـالطرب والخمر ، وتعـاركـوا ، وكاد بعضهم يلقي بنفسـه من فـوق أعمـدة القلعة »[١] ..

ويقول في مكان آخر من المقال نفسه :

« ألف ومئتا مسلح لحماية حفلة غنـائيـة ! هل من دليل على قيـمة الفن في نفوس أهل بلد أقوى من تخصيصهم هذا العدد من الجند لحمايـة الفن ، في وقت تكون حدود بلدهم بحاجة ماسة إلى الحماية من عدوٍ دائم الإغارة عليها » ...

وفي مكان ثالث يقول :

« ويُخرجـون ـ أي الجنـود ـ قنـاني الـوسكي والعرق من حقـائب أيـدي السيدات »[٢] .

● وأمـا إذا أردت أن تعرف كيف يجـد بعضهم المسوغ لنفسـه في التعبُّـد لصوت السيدة (كوكب الشرق) وفي اصطناع الـدعـاوة لفنهـا وحفلاتهـا ، وبـالتـالي لـدور تلـك الحفـلات في تبليـد حسّ الإنسـان العربي تجاه العـار الـذي سُمي تظريفـاً (بـالنكسـة) . إذا أردت أن تعرف ذلـك ، فـاقرأ مـا كتبـه الشـاعر المصري المعروف صالح جودت عن ذلك الصوت :

أعتقد أن صوت أم كلثوم ، إذا كان نعمة من نعم الله علينا في هذا العصر ، فإنه رحمة من الله علينا في هـذه الفترة بـالـذات من تـاريخنـا ، التي تستغرقنـا فيهـا همـوم النكسـة . ولـولا أننـا نقضي سـاعـات من الليـل في الاستماع إلى أم كلثوم ، لمرت هذه الساعات علينا طويلة طول الـدهر ، ورؤوسنـا متكئـة إلى أيدينا ، مستغرقين في هم واجم حزين »[٣] ...

---

(١) قلعة بعلبك .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عن مجلة الطليعة السورية تشرين ثاني ١٩٧٠ .

فهل بعد هذا الكلام من حاجة إلى أيّ تعليق أو قول ؟!!

• أما إحداهن ، وهي زميلة صديق لي جمعهما العمل التدريسي في بلد عربي معارَين إليه ، فقد أدهشها - في معرض حديث بينهما - ألا يكون زميلها متعلقاً (بكوكب الشرق) لدرجة التعبد كما هي حالها ! فما كان منها إلا أن انتفضت في وجهه كذئبة افتقدت أولادها على حين غرة .. انتفضت في وجهه تقول :

« إن (ثومة) هي الدعامة الكبرى للقومية العربية » وقد يكون هذا مفهوماً !!

ولكنها أضافت أيضاً :

« وإنها الركن السادس من أركان الإسلام ! وهذا ما أعلّمه أنا لطالباتي »[١] ...

وبالنظر لأنها - المدرِّسة - من قطر عربي حار ، بينما هو من قطر عربي شمالي بارد ، فقد لاذ بالصمت ولم يُعقّب . لكنه أدرك أن زميلته لا تتكلم بلسانها فقط ، ولكنها تتكلم بلسان الألوف ممن هم على شاكلتها ، وممن هم واقعون تحت تأثير الخدر اللذيذ لذلك الصوت الفريد ، ولهاتيك المعاني الغنائية (المبنّجة) المُسْكرة .

أفرأيت ، بعد هذا - قارئي الكريم - أفظع من هذه الغيبوبة الذهنية ؟! بل أرأيت أخطر من تلك الغيبوبة العقلية الرهيبة ؟!!

---

(١) أركان الإسلام كما يعرفها القارىء ، وكما عرفناها بالتواتر والإجماع خمسة أركان . فهل وصل إلى علم هذه المدرِّسة غير ما وصلنا ، وذلك عن طريق (موثوق) آخر ، كالتوراة أو التلمود أو مجلة المصور أو آخر ساعة أو نوادر جحا مثلاً ؟!

وبعد :

فماذا نريد أن نخلص من وراء كلامنا السابق كله ؟

- هل نريد أن نحمّل (السيدة) مسؤولية النكسة ، كما فعلت كاتبة لبنانية تقدمية جداً ومعروفة ؟ [١] لا . لأن للنكسة أسباباً عديدة لا تقتصر فقط على ظاهرة (التغييب الذهني واستعجال اللذائذ التي شحنت بها أغاني السيدة) .
إذاً :

- هل نريد أن نحسدها على شعبيتها ؟ لا ، ومئة لا . فنحن - أقل ما في الأمر - لسنا أصحاب حرفة واحدة حتى نتحاسد .

- هل نريد أن ننكر جمال صوتها وسحره في النفوس ؟ لا والله العظيم . فصوتها بحدّ ذاته آية من آيات الله في خلقه . إذاً :

- هل نريد من (السيدة) أن تستبدل بنصوص الهوى واللوعة والغرام نصوصاً في الفلك والطب وعلم الحيوان ؟ لا وألف لا . فنصوص الفلك والطب وسواها صعبة التلحين ، وإنها ولو أمكن تلحينها لا تطرب ولا تثير هياج أحد .

يقول بعضهم : إن (سيدة الغناء العربي) مغنية وحسب . الكلام الذي تغنيه ليس من نظمها ، والأفكار التي تبثها عبر (وصلاتها) ليست من بنات أفكارها ، وعلى هذا فهي لا تتحمل أي وزر مما تحدثه بعض أغانيها من تأثيرات فكرية مؤذية ، وتغييبات ذهنية تعزل الأجيال العربية المعاصرة عن واقعها الأليم الذي يجب أن تواجهه ، وتباعد بينها وبين مبادئها ومثلها الكريمة التي يجب أن تتطلع إليها وتحيا من أجلها .. إنها لا تتحمّل أيّ وزر أو مسؤولية .

---

(١) هي ليلى البعلبكي .

أما نحن فنقول : لا ، ليست (كوكب الشرق) مجرد مغنية وحسب ، حتى ولو كان الكلام الذي تغنيه ليس من تأليفها ونظمها ، والأفكار التي تبثها ليست من عندها . ذلك أن (السيدة) هي التي تنتقي أغانيها وقصائدها ، وهي التي تتذوقها فتقبلها أو ترفضها دون أي نقاش . فشخصيتها قوية حتى حدّ الاعتداد ، واعتزازها بنفسها وبذوقها شيء يتجاوز حد الوصف ، فضلاً عن أنها ذوّاقة متمكنة من لغتها تمكناً عجيباً ، وتعرف مرامي الكلام وأبعاده .

جاء في أحد الكتب [١] التي تتحدث عنها ، تحت عنوان (ثقافتها وشخصيتها) ما يلي :

« أما ثقافتها فهي تنحصر في تمكنها من لغتها تمكناً عجيباً ... وهي فوق ذلك أديبة ذوّاقة ، تحفظ الكثير من الشعر القديم والحديث ، وتختار بنفسها القصائد التي تغنيها » .

إذاً السيدة مسؤولة مسؤولية كاملة وواعية عن اختيارها لنصوص أغانيها ، وعن كل ما يترتب على هذا الاختيار من تبعات وانعكاسات هابطة (سواء أكانت خلقية أم قومية أم اجتماعية أم وطنية) . وما نحسب بأي حال من الأحوال أن بروز الظاهرة التي أشرنا إليها فيا سلف ، هو بروز عَرَضي ، أو أنه مجرد مصادفة . لا أبداً . وحتى لو افترضنا جدلاً أنها مصادفة ، أو أنها في أحسن الأحوال والافتراضات ، تعبير عن إحساسها بدخولها (سن الإياس الفني الغنائي) .. فإنها تبقى مصادفة سيئة ، وتظل تعبيراً ضاراً ضرراً بالغاً بمصالح الجماهير العربية ، تلك الجماهير التي لا تنفك تتسمع إلى أغانيها صباح مساء وليل نهار ، من موريتانيا إلى عربستان .

وإذاً : فإن الذي نريد أن نخلص إليه ـ أو لعلنا خلصنا إليه فعلاً ـ هو أنّ

---

(١) سلسلة أنغام من الشرق ص (٤٢) من الجزء الخاص بها .

(السيدة) تستخدم السلاح استخداماً خاطئاً وخطيراً ..

وهو أن نرصد الظاهرة ، ظاهرة :

(التغييب الذهني والحث على نهب اللذائذ واستعجالها) .

ثم هو إلقاء الضوء الكاشف على الآثار الخطيرة التي أحدثتها أو ستحدثها هاتيك الظاهرة ، في البنية الحياتية للمجتمع العربي بأكمله . ولعلي استطعت وأصبت الحقيقة المرة ولو بعض الإصابة . وأقول (مَرَّةً) لأنه لا جرم أن الدور الذي تؤديه تلك الأغاني والتي كان بعضها موضع استشهادنا ، بما تغرسه في النفوس من روح هربيّة ، وتهافت لذائذي ، وانفلات من المسؤولية ، وحث على انتهاب المتع ومعالجة الشهوات ، وحضٍ على بخس لقيمة الزمن وهدر له ، واعتبار أن الحياة كلها تافهة وضائعة ، إلا ما كان منها يمثل لحظة مضاجعة أو حب [1] .. نقول لا جرم أن ذلك الدور هو دور خطير وفظيع يقتضي منا كل حذر وانتباه ، لا سيا في هذه المرحلة الفاصلة من حياة أمتنا ، المرحلة التي نحتاج معها إلى كل همة عالية ، ورجولة متوثبة ، داست لذائذها تحت أقدامها ، تعيش بوعيها الكامل هموم وطنها ، وتحرص على كل ثانية من وقتها ، أن لا تضيع عبثاً ومجوناً في اقتناص شهوة أو في احتضان عشيق [2] .

ورحم الله أبا الطيب المتنبي إذ يقول :

تركنا لأطراف القنا كل شهوةٍ فليس لنا إلا بهنَّ لعابُ

وإذ يقول :

ولا تحسبنَّ المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

(١) « واللي شفته قبل ما اتشوفك عنيا ـ عمر ضايع يحسبوه إزاي عليا » ؟! ـ أغنية (أنت عمري) .

(٢) « أنام وأصحى على ابتسامتك بتقولي عيشي » ـ أغنية (أمل حياتي) .

ورحم الله أمة تأخذ العبرة ، وتتعلم الـدرس ولو من صراصر الحقل البليـدة الكسلى ، تلـك التي تتخـذ من فصل الجـد والجنى ، فصل ترنم وغنـاء ليس لـه آخر .. حتى إذا ما أقبل الشتـاء ، وهـاجت الأعـاصير ، وطمت السيول ، وعزّ الغذاء والمأوى .. رأيتها تموت جوعـاً وغرقـاً . فكيف بنـا ونحن نترنم ونغني بلا كلل ولا ملل في صميم الشتاء ، الشتاء الذي كتبته الأقـدار على أمتنـا ، وقضت عليها أن تعيشه ـ ولا ندري إلى متى ـ في مواجهة عـدوٍّ قلَّ نظيره في التـاريخ مكراً ولؤماً ، ويقظة وعناداً !!

احذروا هذا الزواج

بعض الشباب المسلم متناقض مع نفسه ، متناقض مع فكرته ، إذ غدا من المألوف تقريباً أن تجد زوجة أحدهم متبرجة مسفرة ، أو بنته غير محتشمة ، معالم جسمها بادية لكل عيان !. وما أكثر ما تردّد في ذهني هذا السؤال : ما سبب هذا التناقض الغريب العجيب يا ترى ، ومن أين ينبع ، وأين ينتهي ويصب ؟

إن السبب في رأينا يرتد إلى عدة مسببات ، ولعل من أهمها ما نوّهتْ إليه الآنسة (ف.ز) في رسالتها إلى « اللواء » الغراء ، والتي أجابها عليها في حينه الأستاذ الزرقا [1] ، الذي أخذ بوجهة نظرها مؤيداً إياها في حملتها على (نظرية الإصلاح) في الزواج ، التي يتورط فيها بعض الداعين إلى الله .

هذه النظرية كم آذتْ وكم أفسدتْ ؟! إنّ الآخذ بها يسمح لنفسه بأن يتزوج من مستهترة غير ملتزمة ، بحجة أن الفتاة الصالحة هي فتاة قد صَلُحَ إيمانها ، وحسنَ إسلامها ومعشرها وملبسها ، ولم تعد بحاجة لغير ذلك . أما الفتاة المستهترة فإنها في حاجة لمن يصلحها ، وفي حاجة لمن يضحي من أجلها ، إشفاقاً منه أن يصير جسمها الطري اللّدْنُ حطباً في جهنم .. وليس كالزواج منقذاً لها فيتزوجها . ثم لا تسلْ بعد ذلك عن سبب تلك الصيحات المنبعثة من العش الزوجي « الهانىء » ، فإنها « صيحات الإنقاذ والإصلاح » .

إن المشكلة أيها الشاب المسلم تتعدى كونها إصلاحاً ، إنها باطلٌ أُلبس

---

(١) هو الأستاذ مصطفى الزرقا وزير عدل سابق ومن كبار رجال القانون والشريعة الإسلامية ، وهذا المقال نشر في جريدة اللواء الدمشقية في شباط سنة ١٩٦٣ مشاركة من الكاتب في معالجة موضوع طرح للنقاش في حينه ، ويدور حول فكرة (هل يتزوج الشاب الصالح البنت المتحللة فيصلحها ، أم يتزوج الصالحة التي ليست بحاجة إلى إصلاح) ؟

حقاً ، بل إنها ـ كما ذكر حضرة الأستاذ الزرقا في جوابه ـ (أُحْبُولَةٌ من أحابيل إبليس) يربط بها على عنق وقلبِ عدد من الشباب المسلم ، فيُعْميه ويُصمه ، ثم يورده موارد التهلكة .

نعم يا أخي إن المشكلة ليست مشكلة إصلاح . إنها مشكلة الانجراف مع الشيطان ومع تيار الهوى ، وإنها مشكلة الاستخذاء على أعتاب المغريات ، والجثو في حضرة الشهوات ، والركوع بين يدي الفتنة الزائفة والجمال الكذّاب .

ويقيناً لو علمت يا أخي أن تلك « الغادة الهيفاء » التي تخطر أمامك هنا وهناك ، أو تصادفها في طريقك إلى البيت أو المسجد أو المدرسة أو المتجر أو الجامعة ... لو علمت أنَّ تلك « الغادة الهيفاء » التي لا يخلو أن يسارع خطورُها في خفقات قلبك الغفل النقي ، والتي لا يخلو أن تلفت بعض طرفك الكسير عن الحرام والمنكر .. لو علمت أن تلك « الغادة » ليست هي في بهائها ورونقها العابر إلا نتاج الوقوف ساعات وساعات على المرآة ، لما خفق لها بعض قلبك ، ولما امتدَّ إليها بعض طرفك ، ولما فكّرت ثم قدَّرت ثم أقدمت على الزواج منها بداعي (الإصلاح) !

فيا أيها الشاب المسلم ، يا أخي ؛ يا من يمكن له أن يقع ـ لطيب قلبه ـ في أول شرك . ويا من ينتظر له ـ لقلة خبرته في المرأة ـ أن يقع فريسة باردة بين الأنياب البيضاء المجلوّة « بالكولينوس » وبين المخالب « المهذبة » المصبوغة بالأحمر . أعني أنياب ومخالب أول صاحبة جديلةٍ رقطاء شقراء يصادفها في طريقه .. تمهَّل ، تبصَّر ، وخذها مني حقيقة ناصعة صريحة ، ودعني أسائلك :

ـ ما حقيقة هذا الجمال ، جمال الشارع ؟

- هل كثافة الشعر إلا نفشٌ ونفخ[1] ؟!

- وهل ألوانه الزاهية إلا أصبغة خاصة ، تباع في كل صيدلية ، بل عند كل عطار ؟!

- ثم هل القامة الفارعة إلا كعبٌ طويل ؟ وهل القدُّ المشوقُ سوى « مشدَّات وأحزمة » ؟ وهل نضارة الوجه وبهاؤه سوى طلاءات من تصدير « ماكس فاكتر » ؟ ثم هل العيون « البقرية » سوى ذيول الكحل الأسود أو الأزرق ؟ وهل السهام المسدَّدة سوى « الريميل) المتكاثف على الأهداب ؟ ثم هل « الهضاب » الصدرية غير خرق وإسفنج أو كوتشوك ؟

ثم ما أسرع ما يتبدد هذا الجمال الخادع ، حالما تزول الأصبغة ، ويخلع الكعب ، وتفك الأحزمة ، وتتلاشى الطلاءات ، ويذوب الكحل ، وينزع الإسفنج !

وما أسرع ما ترتد هذه « الغادة » إلى حقيقتها عندما يحصل كل هذا بعد عودتها إلى البيت . فتعساً تعساً لمن فتنه جمال الشارع الزائف ونأى به عن الطريق !!

ألا ما أفدحه من ثمن ذاك الذي يدفعه الشاب المسلم ، عندما ينجرف مع التيار ، ويؤخذ بالبهرج ، وينقاد للهوى ، ويطأطىء لإغراء شياطين الإنس ! إنه ثمن مضاعف يدفعه أولاً من دينه وآخرته ، وذلك عندما يصطدم بالواقع المرير بعد الزواج بأيام ، إذ تتبدد الأحلام ، وتنحسر الأقنعة ، وتنعدم (الكلفة فإذا بالحَمَلِ ثعلب ! وبالغادة عنزة ! وبالفرس الأصيلة

(١) يوم كتب هذا المقال لم يكن التزييف التجميلي قد توصل إلى استخدام القبوع الشعرية (الباروكات) التي تجعل من القرعاء فَرْعاء ، ومن الصلعاء غرّاء ، إلا على نطاق محدود ! أما الآن (١٩٧٣) فقد فشا هذا التزييف فشواً كبيراً مما اقتضى التنويه إليه ، وإلى أن (الباروكة) لا تخلو في الغالب من شعور بعض الحيوانات أو الأموات !

الضامرة دابة شموس جموح ، لا تُمْسَكُ من عنان ولا يؤمن لها جانب ! مستبدة برأيها ، معتدة بسلوكها ، مصرة على سابق خطتها . لا يؤثّر فيها نصح ، ولا ينفع معها أي (إصلاح) . فلا يسع الرجل مع الأيام ، ومع العناد ، ثم مع الدموع المدرارة التي تسكبها سيولاً - لأقل ملاحظة توجه إليها أو لوم - ثم مع الأولاد فيما بعد .. لا يسع الرجل آنئذٍ إلا أن يستسلم وأن يركع وأن يجثو عند إرادتها ، وعند أهوائها . فهي تلبس ما تريد وتخلع ما تريد ! تتبرج كما يحلو لها ، وتزور عندما تشاء ، وتفصّل لبناتها الثياب على أحدث الأزياء الفاضحة المستوردة .. وهو شاخص العينين ، معقود اليدين ، لا حول له ولا طَوْل ، وهيهات أن يستطيع التصرف بشيء ، فقديماً قالوا : « من شبَّ على شيء شاب عليه » .

ثم هو يدفع الثمن ثانياً من عقيدته ودعوته ، عندما يفرّط هو وأمثاله بحق الكثيرات من الفتيات المسلمات ، اللواتي اتَّسمن بالحشمة ، وارتَدَيْنَ الفضيلة ، واتَّزَرْنَ بالعفة ، وَحَفِظْنَ أنَّ الزينة لا تظهر إلا لِبُعُولَتِهِنَّ .. فيقضي على آمالهنَّ بما آثر من المكتشفات عليهنَّ . وهنا تكون الطامة الكبرى ! إذ سرعان ما تنسرب الواحدة تِلوَ الأخرى مرغمة مقسورة من صف المحتشمات الفاضلات الملتزمات ، إلى صف الأخريات المستهترات ، بحثاً عن الحياة ، وبحثاً عن السكن الذي هو علّة خَلْقهنَّ : ﴿ ومِنْ آيَاتِهِ أَنْ خلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [١] بعدَ أنْ عَدِمْنَ هذا السكن في شخص الشاب الماجنِ ، لأنَهُنَّ ساترات مؤمنات ، وفي شخص الشاب المؤمن لأنهنَّ مؤمنات صالحات !.

وإذن فليس أمامكم يا شباب الإسلام إلا أن تَبحثُوا عن الزوجة الصالحة في البيت الصالح ، وعن الفتاة المسلمة في البيت المسلم ، وعن الجمال الحق

---

(١) الآية : ٢١ من سورة الروم .

(جمالِ الخُلقِ والخَلْق) في الخدر المكنون ، لا في المفارق والمجالس العامة والمنعطفات .

ابحثوا عن البنت المسلمة ، واطلبوا الشابة المؤمنة ، فهي هي الضمانة للجيل والنشء ، والضمانة لعقيدة الأخ المسلم من أن تَتَآكل وتَتَلاشى ، والضمانةُ لشخصيته ألا تتناقضَ وتزدوجَ ، وألا تقعَ تحت قوله تعالى : ﴿ **لِمَ تقولون ما لا تفعلون ؟ كَبُرَ مَقْتاً عند اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ [1] .

وعليكم بذات الدين ، اظفروا بها ، تَرِبَتْ أيديكم ، وثقُوا بأنَّ (كلُّ الصيدِ في جوفِ الفَرَا) [2] .

* * *

---

(١) الآية : ٣ من سورة الصف .

(٢) مثل عربي قديم . (والفرا) هو الفتي من حمر الوحش ، وقد كانت عندهم من أثمن الصيد .

ظاهرة النفاق

إن الآفـات الاجتماعيـة والنفسيـة ، ليست أقل خطراً في كثير من الأحوال من الأمراض الجسمانية . سواء أردنا من ذلـك الخطر على الفرد ، أو الخطر على الجماعة . بل لا نعدو وجه الصواب أبـداً إذا قلنـا : إن تلـك الآفـات كثيراً مـا تكون أسرع في التفشي ، وأفتـك بـالكيـان العـام من أبشع الأمراض الوبـائيـة المعروفة التي تجتاح الشعوب حيناً بعد حين . وربما كان (النفـاق) في طليعـة هاتيك الآفات .

ما النفاق ؟ ومن المنافقون ؟

ولـدى الاستئنـاس بمعجمات اللغـة من جهـة ، والنظر إلى مجمـوع تصرفـات المنـافقين من جهة ثـانيـة ، نستطيـع تعريف النفـاق على النحـو التـالي : « النفـاق : هـو إظهـار الشيء مـع إضمار غيره ، أو إخفـاء الشيء مـع إظهـار غيره » قـال تعـالى يصف المنـافقين : ﴿ **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ (١) . وبتعريف آخر : « النفـاق هو المقـدرة على التلون ـ سلوكيـاً ـ بلونين على الأقل وذلك بحسب مقتضى الحال » . وعلى هذا فالمنافق مخلوق أوتي مقدرة خاصة على خداع الآخرين ، وإيهامهم بأنه منهم بمنزلة الشيء الواحـد ، فيما يحبون أو يكرهون ، وفيما يؤمنون أو يكفرون ، في حين أنه بالبراعة ذاتهـا متملك ثقة أخصامهم الكائنين أو الذين سيكونون .

وهنا نجد أنفسنا مدعوّين للتميز بين « النفاق » من جهة وبين ما قد يبدو مشابهاً له بالشكل أو مرادفاً له بالمعنى من جهة أخرى ، لكي تستبين لنا جوانب الأمر كله إن أمكن .

---

(١) الآية : ١٦٧ من سورة آل عمران .

أ ـ (النفاق) و (الكذب) :

أليس الكذب هو النفاق بعينه ؟ والجواب على ذلك : « لا » ونقول : « لا » لعدة أسباب أولها : أن الكذب علامة من علامات النفاق وليس النفاق نفسه . جاء في الحديث الشريف : « آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » . وثانيها : أن الكذب وسيلة من وسائل النفاق وليس النفاق ذاته . وثالثها : أن الكذب يكون باللسان ، أما النفاق فيكون بالجوارح جميعاً :

- بالعين مثلاً (غمزة ماكرة أو دمعة مصطنعة) .
- بالأنف : (نخرة استخفاف) .
- بالشفتين : (زمَّة امتعاض) .
- بالفم : (ابتسامة رضى وموافقة) .
- بالرأس : (هزة رفض أو انحناءة احترام) .
- بقسمات الوجه كله : (تشنجات ألم ، أو استرخاءات ارتياح) .
- بالبنان : (إشارة مختلسة بقصد النهي أو التشجيع) .
- بالأسنان : (صريفها إظهاراً للغيظ ، أو العض بها على الأصبع إظهاراً للندم) .
- بالكتف : (رفعة لا مبالاة) .
- بالعِطف : (ثنيه إعراضاً) .
- بالرئتين : (زفرة تنهدٍ وتحسر) .. وغير ذلك كثير .

ورابعها : أن محل الكذب ظاهر وهو (اللسان) أما محل النفاق فخفي وهو (القلب) .

وخامسها : أن الكذب ـ بناء على ما سلف ـ قد ينطلي أمره على الناس ، ولكن لفترة ، وقديماً قالوا : (حبل الكذب قصير) . أما النفاق فلكثرة وسائله واستتار محله ، فإنه ينطلي على الناس لأمد أطول بكثير ، وقد لا ينكشف إلا بمحض المصادفة ، ولا سيما إذا كان المنافق بارعاً والمنافَقُ له ساذجاً بريئاً .

ب ـ (النفاق) و (الخيانة) .

ولسائل أن يسأل كذلك : أليست الخيانة هي النفاق ؟ والجواب على ذلك أيضاً « لا » .

لماذا ؟

أولاً : الخيانة (موقف) أما النفاق (فسلوك) .

ثانياً : الخيانة تقع مرة واحدة ، ثم يصنف صاحبها في زمرة الخائنين ، ويتم تحديد الصلة به .

أما النفاق فشيء مستمر خفي وغير مرئي . ولكي تتضح الصورة أكثر نستعير مصطلحات الطب فنقول : الخيانة (حُمَّى) والنفاق (سل) . في الحمى ترتفع درجة الحرارة فجأة وبحدّة ، فتكون إنذاراً تتخذ له جميع التدابير العلاجية والوقائية بالسرعة اللازمة ، فيقف كل شيء عند حده ويسلم الجسم . أما في السل فلا إنذار ، وعندما يبدأ المسلول يحس بأنه مسلول ، يكون كل شيء قد انتهى تقريباً بعد أن قضى الداء وطره من ضحيته على مر العديد من الشهور أو السنين !.

ثالثاً : الخائن ـ في وقت الخيانـة ـ صريح ولو مع نفسـه على الأقل ، وهي صراحة لا يحسد عليها على أيّ حال . أما المنافق فهو مخادع كذاب ، حتى على نفسه ودون انتباه منه أو شعور . قـال تعـالى في المنـافقين : ﴿ **يُخَـادِعُونَ اللهَ وَالذِينَ آمَنُوا ، ومَا يَخْدَعُونَ إلا أَنْفُسَهُم وَما يَشْعُرُونَ** ﴾ [١] .

جـ ـ (النفاق) و (الرياء) :

ولقائل أن يقول أيضاً : وماذا يختلف الرياء عن النفـاق ؟ أليس هـذا هو ذاك ؟ أو ذاك هـو هـذا ؟ ونجيب للمرة الثـالثـة بـ (لا) لأن النفـاق يظـل أحط مرتبة وأنذل خلقاً !.

صحيح أن الرياء هو صِنْوُ النفاق من حيث أن محل كل منهما هو القلب ، والفصل في شأنهما منوط بالنية ، والذي يحكم على النوايـا والقلوب هو الله . إلا أن ما بين الرياء والنفاق دركات عديدة على السلَّم الهابط ، تجعل النفـاق أدنى وأسفل من الرياء بكثير .

وأول تلـك الـدركات : أن الريـاء يحمـل في طيـاتـه عنصري (السلب والإيجاب معاً) فالمرائي مثلاً قـد يتبرع بمبلغ من المـال لمشروع خيري ـ وهـذا هـو عنصر الإيجـاب ـ ولكن ليس لرغبـة خـالصـة في الخير ، وإنمـا ليُرى أمـام الناس أنه محسن جواد ـ وهذا هو عنصر السلب ـ والمرائي قـد يـذهب للجهـاد فيقاتل ويقتل . الذهاب بحد ذاتـه عمل إيجـابي ، وإن كان المقصـد سلبيـاً كأن يكون شهرة أو مطمعاً أو غير ذلك . إلا أنـه في الحـالين : حـال التبرع وحـال الجهاد ، قدَّم للمجتمع شيئاً إيجابيـاً ، وأسـدى للأمـة جميلاً ومعروفـاً . ومن المهم هنا أن يُلاحظ أننا قلنا : (قدَّم للمجتمع) ولم نقل : (قدَّم لنفسـه) ذلـك أنـه

---

(١) الآية : ٩ من سورة البقرة .

ليس مع الرياء بالنسبة للمرائي ثواب ، بل له الويل في الآخرة والعقاب [١] .

في حين أن النفاق لا يحمل في طياته إلا السلبية المطلقة ، والضرر القاتل لصاحبه وللمجتمع على حد سواء . إذ إن المنافق يعطي - إذا أعطى - باليد ما سيأخذ أضعافه باليد الأخرى .

والمنافق قد يذهب للحرب ، ولكن لينهزم أو يرتد على عقبيه في أحرج اللحظات ، وأي مسلم لا يذكر موقف المنافق الأول (عبد الله بن أُبيّ) عندما خذل رسول الله ﷺ في منتصف الطريق إلى (أُحد) ، ورجع بثلث الجيش إلى (المدينة) . وكل حجته فيما فعل قوله : « ما ندري علامَ نقتل أنفسنا . » ؟!. فأية خسة تعدل هذه الخسة ؟ وأي غدر يداني هذا الغدر ؟!

وثانيتهما : أن الرياء عكسه (الإخلاص) أما (النفاق) فعكسه (الإيمان) وعلى هذا فالمرائي (غير مخلص) أما المنافق (فغير مؤمن) وشتان شتان ما بين (عدم الإخلاص) و (عدم الإيمان) !! (عدم الإيمان) كفرٌ لا ريب ، بينما (عدم الإخلاص) هو نقص في مرتبة الإيمان ، أو ضعف فيه ليس غير . ومن هنا كان مقر المنافقين في جهنم مع الكافرين أو أسفل منهم لقوله تعالى : ﴿ **إنَّ المُنَافِقِينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِن النَّار وَلَنْ تَجِدَ لَهُم نَصِيراً** ﴾ [٢] بل إن الله عز وجل ليتوعدهم بالجحيم واللعنة والعذاب قبل الكفار في قوله : ﴿ **وعَدَ اللهُ المنَافِقِينَ والمُنَافِقَاتِ والكُفَّار نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُم ، ولَعَنَهُمُ الله ، ولَهُمْ عَذَابٌ مُقِيم** ﴾ [٣] .

---

(١) قال تعالى في سورة الماعون : ﴿ **فَوَيلٌ لِلمُصَلِّين . الَّذِينَ هُم عَنْ صَلاتِهِم سَاهُون . الَّذِينَ هُم يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ** ﴾ .

(٢) الآية : ١٤٥ من سورة آل عمران .

(٣) الآية : ٦٨ من سورة التوبة .

وبعد : فما تفسير تلك الظاهرة ، ظاهرة النفاق في مجتمعٍ ما ؟

وما النتائج التي تترتب على تلك الظاهرة لدى بروزها في ذلك المجتمع ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال بشقيه ، لابد من المبادرة إلى تقرير حقيقة لا مراء فيها ، تلك أن (ظاهرة النفاق) قلَّ أن يخلو منها مجتمع ما ، سواء في القديم أو الحديث . ولكن الذي لا مراء فيه أيضاً هو أن نسبة المنافقين تختلف من مجتمعٍ إلى آخر قلة وكثرة . إذ بينما تكاد تخلو منهم بعض المجتمعات ، نجد أنهم يشكلون السواد الأعظم في بعضها الآخر !.

نعود الآن إلى السؤال ونبدأ بالشق الأول منه .

(تفسير الظاهرة) :

إن الذي يرصد سلوكية المجتمعات ويتتبع أخلاقية أفرادها ، يجد أن مردّ (الظاهرة) يرجع إلى عاملين اثنين : أولهما يتصل بالفرد ، وثانيهما يتعلق بالجماعة .

أما الذي يتصل بالفرد ، فذلك ما نعني به : الاستعداد النفساني الذاتي الخاص المتوفر لدى بعض الأفراد للقيام بدور المنافق ، وممارسة حرفة النفاق بحيث لا يستطيع أحدهم أن يعيش إلا منافقاً .

وأما ما يتعلق بالجماعة ، فنعني به : المناخ الاجتماعي العام الذي يعيش الفرد في إطاره ، ويتأثر به ، ويكتسب منه (سلوكيته وقيَمه) . ولدى إجالة الفكر والنظر ، نجد أن أخصب ترب النفاق ، وأحسن المناخات ملاءمة (لتفقيس) المنافقين بأعداد ضخمة هائلة ، هي تلك الترب والمناخات التي يتوفر فيها ما يلي :

١ ـ (الاستغلال الطبقي والظلم الاجتماعي) : حيث يكون مقطع الرزق

بيد آحاد من الناس ، هم الذين يتحكمون بالأعناق والأرزاق ، ويرددون مع الشاعر قوله :

ملكنا مقطع الرزق فأفقرنا وأغنينا

وعندها يتهافت الناس من ذوي الحاجات ، الباحثون عن رقعة الكساء أو الرغيف . يتهافتون على الأبواب والأعتاب ، متوسلين إليهم بشتى الوسائل المهينة ولا سيما (النفاق) . وفي هذه الحال يصبح الشعار المتداول : (من لا ينافق لا يأكل) ، وفي هذه الحال تصبح القراءة المنطقية لبيت (بشار) على النحو التالي :

يسقط (البطن) حيث ينتثر (الأكل)

وتُغشى منازل (الكبراء) (١)

٢ ـ (الاستبداد السياسي) الأمر الذي يترتب عليه مباشرة (الإرهاب الجسدي والحجر الفكري) :

ففي حال الاستبداد السياسي ، يتحتم على الجميع أن يفكروا بعقلٍ واحد ـ هو عقل المستبد ـ وأن يروا بعينيه ، وأن ينطقوا بلسانه . وإذا ما سوّلت لأحدٍ منهم نفسه أن يقول ما يعتقد ، أو ينصح بما يعلم أنه الصواب والحق ـ مخالفاً أو معارضاً ـ فذلك هو الخائن العميل المارق !! وذلك هو الذي يستحق الجلد والرجم والسلخ جميعاً !!.. وأكرِمْ ـ آنئذ ـ بسوق النفاق من سوق رابحة مثرية ! فالمنافقون بالاستعداد والسليقة يتوافدون عليها من كل حدبٍ وصوب ، والمترددون الواقفون على مفترق الطريق ـ وهم في الغالب كثرة بالغة ـ فهؤلاء لا يلبثون أن يسفطوا في الحمأة ، ثم يصبحوا من كبار

---

(١) أصل البيت :

« يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء »

المضاربين . أما الشرفاء فينسحقون في زحام (البورصة) ، ولا يبقى منهم إلا كل طويل عمر !..

ألا ما أعجب تلك السوق ؟!

ـ اللبن فيها أسود !.

ـ والليل مشمس !!

ـ والأرض مسطّحة ، وخسىء من قال : إنها كروية تدور !!

ـ وموزمبيق بركان ينبع من البحر الميت ويصب في الهيمالايا !!

ـ وهيلاسلاسي هو أول رائد فضاء مشى على سطح القمر !!.

* * *

ويبقى الآن الشق الثاني من السؤال :

(ما النتائج المترتبة على بروز الظاهرة في المجتمع) ؟

لعل الجواب من الوضوح بحيث لا يحتاج المرء معه إلى كلام .

إن مجتمعنا ـ أيّ مجتمع ـ يعمّه النفاق ، ويأخذ بزمامه المنافقون ، لهو مجتمع متفسخ ، فاسد ، منهار ... مجتمع بلا قيم ، بلا مثل ، بلا مستقبل ... الحقيقة فيه ضائعة ، والضمائر ميتة ، والشرف مهان ، والطاقات معطلة ، والسفينة تائهة ضالة ، توشك أن تبتلعها الأمواج ، وتهوي بها في قرارٍ سحيق .

المنافقون مخلوقات وضيعة ، تنعق مع كل ناعق ، وتصفّق مع كل مصفّق ، وتصفّر مع كل مصفرٍ ... هم كثيرون في الرخاء ولكنهم قليلون عند البلاء ، وما أصدق هذا القول فيهم : إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحداً .

المنـافقـون ليس لهم ولاء ، وليس عليهم معتمـد . كم زيَّنـوا الإثم لصـاحبـه فوقع ؟. والغرور للمصاب به فانتقصم ؟ والبغي للمهيأ له فبغى وظلم ؟..

وكم قوضوا من ممالك ؟. وكم لغموا من صروح ؟. وكم أشعلوا من فتن ؟..

المنــافقـون ليس لهم وطن ـ وإن انتسبـوا إليـه ـ ، وليس لهم دين ـ وإن ادَّعوه ـ ، وليس لهم صديق ، مهما أخلص إليهم وتظاهروا بالوفـاء لـه ، ودأبهم أنهم دائماً :

(يعيثون مع الذئب ، ويبكون مع الراعي) .

المنافقون خاب كل من ركن إليهم ، وهلك ـ ولو بعد حين ـ كل من وثق بهم أو اعتمد عليهم ، ويـاضيعـة أمـة ، ويـا ويل شعب ، ويـا خراب ديـار ، ويا فناء مجتمع غلب فيه منافقوه ...

وأخيراً .. هل من علاج ؟ هل من عاصم ؟ وكيف السبيل ؟

إن هذا المقال لا يمكن أن يدَّعي لنفسه القدرة على تقـديم العلاج النهـائي الحاسم ، فالباب يظل مفتوحاً لكل دارس ، ولكنه يزعم المقدرة على اقتراح مـا من شـأنـه أن يكون عوامل وقـائيـة على الأقل ، عوامـل تقطـع الطريـق على المنـافقين ، وتحـول دون استشرائهم ، الأمر الـذي يـؤدي إلى كســاد سـوقهم ، وتدني عددهم إلى أقل نسبة ممكنة .

وإنا لنجمل الاقتراحات في النقاط التالية :

ـ لابد من (الحريـة) أولاً . الحريـة بمفهومهـا البكر ، كما برأتهـا يـد الله . الحرية التطبيقية لا حريـة الشعـارات الاستهلاكيـة . الحريـة التي لم تفسـدهـا تعريفات الفلاسفـة ، ولم تطمس معـالمهـا فـذلكات المتنطقين . فـالحريـة ـ في رأينا ـ لا تتجزأ ولا تترقع ، ولا تحتمل التسميات المستعارة ولا التقنين ، كما أنها

لا تعني الفوضى بحالٍ من الأحوال . (الحرية هي الحرية فقط) والإنسان إما (حر) وإما (عبدٌ) ولا ثالث بينهما .

- فحيث تسود الحرية - بهذا المفهوم - سيادة شاملة ، كالنور وكالهواء لا يحجبها شيء عن شيء فهناك تتضح الحقيقة ، ويخصب الفكر ويزدهر العقل ، وتصطرع الآراء ، ليذهب الزبد جفاء ، وليمكث النافع في الأرض : ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [1] .

وهل مثل النفاق زبد ؟ وهل كالمنافقين غثاء ؟ ؟

- ولابد من (الأمن) ثانياً : أمن الفرد على نفسه في عرضه وفي جسمه وفي ماله . فمجتمع الرعب والخوف (الخوف على الكرامة أو على الرزق واللقمة أو على الحياة) مجتمع لا مجال فيه للإخلاص ، ولا مكان فيه للصدق ، بل المكان كل المكان للانتهاز ، للمراوغة ، للنفاق .

- ولابد ثالثاً وأخيراً من (العدل) . العدل الذي يضع كل إنسان حيث تؤهله إمكاناته العلمية والعملية والخلقية . العدل الذي يحقق تكافؤ الفرص للجميع وفي جميع المجالات على حد سواء ، بحيث يرتفع الفرد بطاقاته المبدعة المنتجة ، وبمواهبه الخيِّرة - إذا ارتفع - ويهبط بخموله وغبائه - إذا هبط - .

وآنئذ - في مجتمع العدل - لا يضطر صاحب الموهبة إلى الاختيار بين (الهرب) أو (الالتفاف) كيما يصل إلى بعض حقه ، ولا يجبر صاحب الخبرة والطاقة إلى (بذل ماء الوجه) حتى يبلغ بعض مكانته ، وبالتالي فإن جميع الأبواب - في مجتمع العدل - توصد في وجوه الأفاكين ، والمنافقين ، (المُدَوْبلين) [2] .

---

(١) الآية : ١٧ من سورة الرعد .

(٢) لا يخفى على القارىء الكريم أنه كان بإمكاننا أن نختصر على أنفسنا الطريق : فنقول منذ البدء وبكلمة =

أما الذين لا تنفع معهم (حرية) ولا يجدي معهم (أمن) ، ولا يرقى بهم (عدل) ـ وهم في الأصل قلة قليلة ـ فأولئك هم المنافقون حقاً . المنافقون بالسليقة وبالاستعداد ، وأولئك عليهم اللعنة ، وجزاؤهم في الدنيا مصحات يحجرون فيها ، أو ضرب الأعناق ، وإلى الجحيم .

☆ ☆ ☆

= واحدة : « لابد من مجتمع يحكمه نظام الإسلام » لأن مفهومات (الحرية والأمن والعدل) لا تتحقق في مجتمع ما ـ بالمعاني السابق ـ مهما كان متطوراً مثلما تتحقق في مجتمع يحكمه شرع الله (نصاً وتطبيقاً) .. إلا أننا آثرنا عدم اختصار الطريق لاعتقادنا بأن (الخط المستقيم) ليس هو دائماً أقرب مسافة بين نقطتين !

متخنفسون

كانوا ثلاثة ، وكنت في الشارع .. لست أتبينهم ، مع أنهم على مقربة مني !!

لست أعرف : أهم ذَكَران وأنثى ؟ أم أنثيان وذكر ؟ لست أستطيع الحكم ، فقد يكونون ثلاثة ذكور ، بل قد يكنّ ثلاث إناث !! وقد يكونون ثلاثة خناث ، فهم الذكور وهم الإناث ؟! .

* * *

الشعور : طويلة قصيرة !

الوجوه : ضاحكة عابسة ! متصلبة مسترخية !.

العيون : متحجرة ناعسة !

الخطا : وئيدة مضطربة !

اللباس : من تحت هو البنطال ، وهو السروال ، وهو « التنورة » وهو « الشورت » أو القنباز !. أو خليط عجيب من هذا وهذا وذاك !!.

اللباس من فوق : هو القميص ، وهو « البلوزة » وهو الزعبوط وهو « الجاكيت » أو أن تفصيلته ـ في واقع الأمر ـ هي ترقيع غريب ، وتلفيق أريب من ذلك كله !!.

الألوان : باذنجاني ، تفاحي ، بطيخي ، زعروري ... سلطة عجيبة من جميع ألوان الخضراوات والأثمار !!.

* * *

ما كانوا يبالون بأحد يعبر بهم أو يعبرون به ، فهم موجودون وغير

موجودين ! وما كانوا يعيرون التفاتاً لمئات الأعين التي أخذت تلتهمهم ، فهم حاضرون وغائبون !. كانوا يتعاطفون في مشيتهم حيناً . وحيناً يتباعدون !. كانوا يضحكون تارة وتارة يعبسون ، فهم عقلاء ومجانين !.

٭ ٭ ٭

وأخيراً عرفت .. عرفت أنهم في بلادي تباشير (البتلز) أعني (الخنافس) آخر من حظي بتناول العشاء على مائدة صاحبة الجلالة في قصر « باكينك هام » من أصحاب المواهب الفنية في المجتمعات البريطانية !.

وعرفت أنهم طلائع (المتسكعين) : أحدث ما توصلت إليه الفلسفات في الدول (الاسكندنافية) !

وعرفت : أنهم إرهاصات (الهيبيز) : أرقى ما طلعت علينا به الهستريا الأمريكية !.

لقد عرفت أنهم أنموذج الحضارة المادية المعاصرة ، أنموذج الجيل الممزق الضائع . الجيل الضال التائه . الجيل الذي يعيش بلا هدف ، بلا مثل أعلى ، بلا أمل ، بلا عقيدة ، بلا معنى [١] .

الجيل الذي أكل آباؤه الحصرم فجاء هو ليضرس ، وكان هذا الضَّرَسُ قدراً عادلاً . الجيل الذي عبد آباؤه - في أوروبا وأمريكا - المادة ، وعبد آباؤه (المال والحياة) بنوكاً ، وتجارة ، وشركات احتكارية ، ونفطاً ، وصلباً ،

---

(١) مما يؤسف له أن توقعاتنا في هؤلاء (التباشير ، والطلائع ، والإرهاصات) قد صدقت . المقال نشر سنة ١٩٦٨ وكان منصباً على الخنافس الأجانب ، وها نحن في سنة ١٩٧٣ نرى أن (ذكورنا) قد انجرفت خلف أولئك (الطلائع) انجرافاً لا يصدق ولا سيا في الجامعات !

ومما يؤسف له أن شعوبنا - بشكلٍ عام - لا تعيش على نفايات أوروبا في الفكر المستهلك واللباس المستعمل (البالات) وحسب ، وإنما تعيش على نفاياتها في (بالات) الأزياء الخنفوسية المستيرية أيضاً !

وحديداً ، وناطحات سحاب ، وناطحات بشر ، أعني حروباً وفتناً ، وعلب ليلٍ ، ودنان خمر ، فجاءت المادة لتستعبده هو . وهبَّت الحياة نفسها تنتقم من الآباء في شخص الأبناء ، فمسختهم خنافس وضفادع ، وجراداً ، وقردة ، وخنازير ، ومهسترين ، ومجانين ، تحت شتى الأسماء المذهبية والاتجاهات الفكرية الفلسفية .

* * *

ومن يدري ؟. فلعل القدر ينتقم لعشرات الشعوب الضعيفة ، التي ابتليت ردحاً طويلاً من الزمن باستعمارهم وظلمهم وسرقاتهم وويلاتهم ، أو أنها لا تزال مبتلاة بمؤامراتهم وبغيهم وامتصاصهم الدماء وقتلهم الأبرياء ؟.

إنهم سيفجرون بلدانهم من الداخل ، إنهم سيقوّضون أركان حضارة بنيت على جماجم الضعفاء ، وأشلاء الشعوب التي مزقوها . فهاهم أولاء يقيمون الدنيا ويقعدونها على رؤوس حاكميهم ، في فرنسا وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها وغيرها . هاهم أولاء ينشرون الفوضى ، ينصبون المتاريس ، يحتلون المباني ، يقتلعون حجارة الأرصفة ، يكسرون أشجارها ، يعطلون الحياة ، وينشرون الذعر كلما أرادوا وحيثما شاؤوا [١] .

ومن يدري ؟ فلعل القدرة الإلهية تريد أن تجعل منهم عبرة لكل جيل يتجرأ على الله ، فيقطع ما بينه وبينه من صلة ؟.

فالذي لا يقطع الصلة مع الله لا يتيه ، لأن الله يقول له : ﴿ **وأنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقيماً فَاتَّبِعُوهُ ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبلَ فَتفرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ** ﴾ . والجيل الذي لا يقطع الصلة مع الله لا يتمزق ولا يضيع لأنه يتلو قول الله :

---

(١) هذه بعض أعمال الفوضى التي مارسها العديد من المراهقين وطلاب الجامعات في معظم العواصم الأوربية أوائل سنة ١٩٦٨ .

﴿ إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُم ، ثُمَّ إنَّ علَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ ، كما يتلو قوله : ﴿ الَّذي خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً ﴾ .

والجيل الذي لا يقطع الصلة لا يلغ في الشهوات ، ولا يبالغ في عب اللذائذ لدرجة ينقلب معها حيواناً ، انقطع كل ما بينه وبين السماء ، بل كل ما بينه وبين البشر من وشائج ، وامّحى كل ما بينهما من سمات وملامح .

إذ إن المؤمن يعرف تمام المعرفة معنى قوله تعالى : ﴿ لا يَغرّنّكَ تَقَلُّبُ الَّذينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُم جَهَنَّم وبِئْسَ المِهَاد ﴾ .

والجيل الذي لا يقطع الصلة مع الله ورسوله ، لا يتأنث ، ولا يسترجل ، ولا يتخنث ، فهو يعي تماماً مضمون حديث رسول الله ﷺ :

« لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء »(١) وحديثه : « لعن الله المخنّثين من الرجال والمترجلات من النساء »(٢) وأنه جيل لا يجن ولا يهستر ! فهو يحمل فكرة تامة وشاملة عن الإنسان والكون والحياة ، وعن مسيرتها منذ الأزل وإلى الأبد .

وإنه جيل لا تتلبسه الأباليس ـ جناً أو إنساً ـ لأن الله يحفظه من الإبليس الأكبر ، فضلاً عن الأبالسة الصغار ، وذلك بنص قرآنه :

﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَاناً ﴾ .

فهل من مدّكر ؟؟!..

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

(٢) أخرجه البخاري وغيره .

شرف المهنة

لسنا من الذين يعتقدون بإمكان تقسيم « الشرف » ، إلى شرف مهنة ، وشرف وعد ، وشرف توقيع ، وشرف وظيفة وما إلى ذلك من أنواع ...

فالشرف واحد لا يتجزأ . ومثل الشرف في ذلك ، مثل القيم الخلقية جميعاً . إذ لا يجوز تقسيم « الأخلاق » إلى أخلاق خاصة ، وأخلاق عامة ، وأخلاق منزلية ، وأخلاق اجتماعية ... لأن هذا التقسيم مخالف لطبيعة الشيء المقسّم .

فالذي لا شرف لديه في مهنته ، لاشرف له في وعده ، ولا شرف في توقيعه ، ولا في وظيفته ، ولا في متجره ... وكذا من كان في أخلاقه الخاصة سيئاً ، فهو في أخلاقه العامة أسوأ ، ومن كان في أهله ومنزله ظالماً ، فهو مع الناس أظلم .

ولكن شرف المهنة الذي عنينا ، هو مجموعة الأعراف والتقاليد التي يتواضع عليها أصحاب مهنة ما ، ويتصرفون في نطاقها ، ويلتزمون بها ، لكيلا يضر أحد بأحد ، ولا يسيء أحد إلى سمعة أحد زملاء مهنته ، بسلوك مهني شائن ، أو بتعامل خسيس ، ينسحب أثره ، وتنجر ذيوله على الجميع ، باعتبارهم أبناء مهنة واحدة . وبذلك تبقى للمهنة مكانتها ، ويصان لها احترامها في قلوب الآخرين .

وإذا كان في الماضي ، الماضي القريب أو البعيد . إذا كان شيخ المهنة هو الذي يقيم الحدود على المخالفين ، ويضمن نفاذ تلك الأعراف والتقاليد في سلوك التابعين له ، فلقد كان هناك : « شيخ الصاغة » و « شيخ السروجية » و « شيخ القصابين » و « شيخ الحدادين » ، وما شئت من شيوخ .. فإننا في

الحاضر نجد أن النقابة ممثلة في رئيسها ، وأعضاء مكتبها ، قد حلَّت محل أولئك الشيوخ ، وتسلمت صلاحياتهم .

نخلص مما سلف ، لنجد أنفسنا مدعوين لأن نتساءل عن موطن هذا الشرف ، شرف المهنة ، لدى كثير من أصحاب المهن في هذه الأيام ، ولا سيما طائفة منهم تأتي - عادة - في التصنيف الاجتماعي على رأس القائمة : علماً ، وثقافة ، ومكانة وذوقاً ، واحتراماً ... تلك الطائفة ، هي طائفة الأطباء .

وليعذرنا - سلفاً - الطيبون منهم ، والشرفاء منهم ، والإنسانيون منهم ... إذ إن هذا الكلام ، سابقاً ولاحقاً ، لا يعنيهم ولا يتناولهم أبداً .

لنتساءل الآن إذن ، ولنتساءل صراحة ودون مداراة ، بل لنقذف بالسؤال هكذا عارياً ودون تزويق ، في الوجه مباشرة ، ولنقل :

أين (شرف المهنة) يا أطباءنا ؟ بل أين (قَسَم المهنة) الذي أقسمتوه ، يا أيها (الملائكة البشر) ، من لابسي الصُّدرات البيض الناصعة؟!

- هل من شرف المهنة - مثلاً - أن يتواطأ الطبيب مع صيدلي معين ، فلا يوجه الزبائن إلا إليه ، ولا يصف إلا ما يقتنيه في صيدليته من أدوية ، حتى ولو كانت من أردأ الأنواع ، لقاء مرتب شهري ، أو نصيب معلوم من الأرباح ؟!

- هل شرف المهنة ، في أن يتآمر الطبيب مع وكالة للأدوية ، فلا يصف إلا أدويتها - كيفما كانت تلك الأدوية ، ولجميع الأمراض على حد سواء - أو أن يجعل من هذه الأدوية ، قاسماً مشتركاً بين جميع الوصفات المكتوبة ، بسبب وبغير سبب ، ابتداء من وجع الرأس وانتهاء بالباسور ، لقاء مرتب شهري ، أو نصيب معين من الأرباح ؟

ـ هل من شرف المهنة ، أن يتعمد الطبيب كتابة الوصفات الطويلة ، بحيث تفوق أحجامها ، أعمدة أطول المقالات في الجرائد ، مدرجاً عليها جميع أنواع الأدوية ، لجميع أنواع الأمراض المعروفة وغير المعروفة ، لا لشيء ، سوى أن يغطّي بذلك على جهله في تشخيص المرض ، أو ليزيد من ربحه على نسبة المبيعات ؟!

ـ هل من شرف المهنة ، أن يزرق الطبيب جميع مرضاه لدى معاينتهم ، بإبر الماء ـ قصد الإيهام ـ ثم يتقاضى ثمن هذه الإبرة ، كما يتقاضى ثمن المعالجة ؟!

ـ وهل من شرف المهنة ، أن يبيع الطبيب النماذج الطبية (الأشتيونات) إلى مرضاه ، فيكون المريض بذلك ، قد دفع ثمن الدواء مرتين : مرة بشكل مباشر عندما اشتراه من الطبيب ، ومرة بشكل غير مباشر هو وبقية المستهلكين إذ إن أثمان هذه النماذج الدوائية ـ التي توزع على الأطباء بمنتهى الكرم ـ مطروحة أصلاً ، على الثمن الأصلي لمجموع إنتاج الشركة ، من قبل أن تغادر قطعة منه عتبة المصنع ؟!

ـ ثم ما معنى أجهزة التصوير الموجودة عند معظم الأطباء ، المختص منهم بالتصوير وغير المختص ، الذي يعرف قراءة الصورة والذي لا يعرف ؟

أليست هي الأخرى إحدى وسائل النصب والخداع ، وإلا فما معنى أن المنصدعة قدمه يصورون له رأسه ، والذي يؤلمه حنكه يصورون له بطنه ، والذي يرعف من أنفه يصورون له فخذه ؟ والذي به زكام يصورون له عجزه ؟! ثم يكون ثمن الصورة الواحدة ـ من بعد ذلك ـ خمس عشرة ليرة على أقل تقدير .

أهكذا يكون شرف المهنة ؟!

على أن ثمة ما هو أدهى وأنكى من كل ما سبق . هناك أشياء تتجاوز امتصاص الدم ، وتفوق الاحتيال والنصب على المرضى ، الذين هم في غالب الأحيان من الفقراء المعدمين ، إذ إن المرض ـ كما هو معلوم ـ خليل قديم ، وصديق لصيق للفقراء والمحرومين .

نعم . ثمة ما هو أدهى وأبشع بكثير !. ثمة الأخطاء الخطيرة الفادحة ، التي يرتكبها أطباء كبار وصغار ، بحق مرضاهم بسبب من اثنين : إما الغباء والمكابرة ، وإما الاستهتار واللامبالاة بأرواح الناس !. دون أن يكون لشرف المهنة أي دور يؤديه ، اللهم إلا أن يكون الخطأ الواقع ، قد أصبح من مستلزمات شرف المهنة نفسه .

وبرغم أن الحديث في هذا المجال يطول ، لكثرة القرائن ، وكثرة الشواهد والحوادث ، اليومي منها والأسبوعي ، فإننا نجتزىء ببعض الأسئلة نثيرها .

ـ ما معنى أن يتيقن طبيبٌ ما ، من أن الحالة المرضية المعروضة عليه ، أو التي يعالجها قد خرجت عن طوقه وطاقته نهائياً ، وأن مريضه ـ الذي منحه ثقته الكاملة ـ في طريقه إلى الموت ، إن لم يتدارك نفسه لدى مستشفى أو مختص ، ومع ذلك يظل يمني أهل المريض أو المريض نفسه بالشفاء العاجل ، وبالتماثل إلى الصحة ، دون أن تواتيه الشجاعة أو المروءة ، لأن يصارحه بواقع الأمر .

أليس الذي يفعل هذا طبيباً جباناً غشاشاً ، أو لصاً يمتص الدم ، ويستنزف المال والحياة ، أو ليس هو بالتالي مسيئاً إلى شرف المهنة ؟!.

ـ ما معنى أن ينسى جرّاح مشرطاً في جوف مريض بعد خياطته .

قد يقال : إنه النسيان .وجلّ من لا ينسى !. فنقول ما رأيكم لو أن مدرساً للعربية نسي ضميراً في بطن كلمة ، من أمثال (أنلزمكموها) فلم يعربه ،

ألا تقوم القيامة عليه وتقعد .

ما رأيكم لو أن خياطاً نسي ففتح الجيب الخارجي العلوي لسترة « بذة » على اليمين بدلاً من أن يفتحه على اليسار . هل يشفع له في ذلك نسيانه ؟! لا ، وألف لا . لقد حصل هذا مرة مع خياط ، فألزم بالبذة كاملة ، بعد أن رفض صاحبها استلامها .

هذا ما حكمت به نقابة الخياطين حفاظاً منها على شرف مهنتها .

فماذا تفعل نقابة الأطباء تجاه ناسي المشرط . هل تلزمه بالجثة ؟!

وماذا ينفع هذا الإلزام صاحب الجثة بعد أن غدا جثة ، أم أنها تجرده من شرف (شرف المهنة) .

ـ وما قولنا في طبيب ، شخّص المغص الكولوني لشاب ، التهاباً حاداً في الزائدة الدودية ، ثم زيّن له ضرورة النوم حالاً في مستشفاه ، ثم فتح له بطنه ، فلم يجد لا زائدة ولا ما يحزنون . فأغلق البطن ، وأوهم المريض بأنه استأصل له الزائدة ، وتقاضى منه الأجر كاملاً بما في ذلك ثمن الطعام والشراب والنوم ؟!

لقد كاد الأمر يظل سراً ، لولا أن الزائدة التهبت عليه فعلاً ذات يوم ، وهو في سفر ، فاستئصلها بعد معركة من الجدل الطويل العريض ، دار بينه وبين الطبيب الجديد . هو يقول له : إنه التهاب الزائدة ، ومريضنا يسخر منه ، ويستخف برأيه ، ويشك في فهمه ، ويقسم له : وحق السماء والأرض ، وحق الطب والبيطرة ، لقد استأصلتها ودفعت الأجرة كاملاً ، منذ سنين .

ـ فما رأي (شرف المهنة) ؟!

* * *

ومهما يكن من أمر ، فإننا في الأمثلة الماضية ، قد نجد تسمية لما مثلنا عليه من أخطاء فاحشة ، وارتكابات مزرية . قد نجد لها تسمية كقولنا : إنها غباء ، إهمال ، استهتار ، جشع ، لصوصية ، غش ، وما إلى ذلك من تسميات .

ولكن :

- ما التسمية التي نطلقها على طبيب ، طرق عليه الباب ليلاً رجلٌ ملهوف ، يلهث من شدة الركض والتعب ، يتوسل إليه أن يسرع معه ، لإنقاذ زوجته المتعسرة بالولادة ، حيث تركها تحشرج وتنازع ، وأطفالها من حولها يبكون . ماذا نقول في هذا الطبيب ، الذي رفض أن يخطو مع هذا الملهوف خطوة واحدة ، إلا بشرطين ، يعلم سلفاً أنهما في تلك اللحظة مستحيلان : مئة وخمسون ليرة تدفع حالاً ، وسيارة تستأجر له فوراً ، مع أن سيارته جاهزة ومقعية كالكلب على الباب ، والمسافة إلى قرية الرجل هي خمسة كيلو مترات فقط . أنقول : إنه الالتزام بشرف المهنة ؟!

- وما التسمية التي نطلقها على طبيب ، يأتيه مصاب بنزف في حالة إسعاف خطيرة ، فيوضع أمامه ، فيرفض أن يمد يده - اللقمانية - إليه لإيقاف النزف ، قبل أن يستلف منه - عداً ونقداً - مئة ليرة تدفع على الحساب ؟!

ثم ما حكم مثل هذا التصرف في (قاموس) شرف المهنة ؟

هب أنك كنت تمسك بكوب من الماء ، وجاءك إنسان به غصة تكاد تخنقه ، وأومأ إليك يريد الماء ، فأبيته عليه إلا بثمن باهظ - قد يملكه وربما لا يملكه - ثم مات الرجل ، أفلا تكون أنت قاتله . أفلا تكون أنت المجرم الذي يستحق الرجم حتى الموت ؟!.

فليت شعري ، لماذا لا يرجم القتلة من أولي الشهادات ، أو أصحاب

الاختصاصات ؟! لماذا لا يسمون بأسمائهم الحقيقية : قتلة . سفاكين ؟!

صحيح ، وألف صحيح ، أن تساهلهم مع جميع الناس ، يؤدّي إلى تدني دخلهم بعض الشيء ، وتنغيص راحتهم بعض الشيء ، ولكن :

ـ هل من الضروري أن يطير الطبيب من أول سنة للتخرج إلى « بنات نعش » ؟!

ـ هل من الضروري أن تتحقق لكل طبيب آماله التقليدية الثلاثة في : (القصر المنيف) و (الزوجة الكاعب) و (السيارة الميساء) من الشهر الأول ، أو السنة الأولى للتخرج ؟!

ـ ثم أليس في راحة الضمير ـ عند وجوده ـ ما يعوّض عن تعب الجسم عند حصوله ؟!

وقبل ذلك وبعده . أين القسم الذي أقسمتموه ؟ أن تكونوا ملائكة رحمة ، رسل إنسانية ، تمسحون بالحنان الجراح ، تخففون بالمروءات عن المصابين ، من كل جنس ، من كل دين ؟!

* * *

ألا رحم الله أياماً ، كانت مهنة الطب فيها من أشرف المهن .

ورحم الله أياماً ، كان لكل مهنة فيها « شيخ » يقيم الحدود ، ويأخذ على أيدي المسيئين .

ورحم الله أياماً كان فيها ، لكل مهنة « شرف » ترعاه ، وتحافظ عليه .

الهوى والشبّاك

عندما زحف علينا الغرب ـ فيما زحف ـ بطراز مبانيه وعماراته ، وعندما حصل الانسياق وراءه بلا وعي في كل شيءٍ حتى في السكن ، فإن التزييف والتشويه قد لحق كل شيء حتى السكن !

فالباحات الواسعة والأبهاء ، مُسخت (صالونات أو صوفات حدّ تعبير الدمشقيين) ، والغرف المتسعة تقلصت إلى غريفات ، والأشجار الوارفة والأزاهير والأوراد التي كنت تراها منبثة في كل الأرجاء ، تضاءلت في أصص ، وزيفت في مزهريات ، كل ما فيها وريقات كالحة مريضة ، أو زهيرات اصطناعية خادعة .

أما المياه الدافقة « والبحرات » والنوافير ، فقد ألغيت أو قننت في صنابير دقيقة ، لا تقطر منها قطرة إلا بعلم (العداد) وإذنه .

وأما النور فلم يعد يصلها إلا من شقوق في الأبواب ، أو فتحات في النوافذ . على حين ألغيت غرفة الضيوف ، إذ لم يعد لها من حاجة ، وناب عنها غرفة الاستقبال وفنجان القهوة والسيكارة .

والهواء الذي كان يأتي نقياً ، أصبح شيئاً خانقاً بما يحمله معه ويوزعه بالتساوي ، على الدهاليز المعتمة والحجرات الضيقة في (أقفاص الدجاج) هذه ، التي درج الناس على تسميتها (بالبناء الحديث) [١] .. لقد أصبح الهواء خليطاً عجيباً من روائح شتى تفوح من المطابخ المتجاورة ، ومن الكوى المتقابلة ، ومن نشيش القلايات الذي لا يسكت في مطبخ حتى ينبعث من مطبخ

---

(١) لا ينطبق هذا الوصف بالطبع على (الفيلات) والقصور التي يختص بها كبار الأغنياء ، والمترفون ، وأولو النفوذ .

آخر .. ناهيك عن المزعجات الأخرى كالطرق والدق من أعلى أو أسفل وبقية الأصوات .. على أن ذلك كله قد لا يعني شيئاً بالنسبة للغربيين ، فتلك حياتهم قد ألفوها ، أو تلك ظروفهم المادية والاجتماعية قد خضعوا لها وسايروها .. ولكن ما ذنبنا نحن الشرقيين ؟!

نحن على أية حال لا نريد أن نتغاضى عن الأسباب المختلفة التي أحوجتنا لاقتفاء أثر الغربيين في طرز البناء ولا سيما في المدن الكبيرة ، ولا نريد أن نقول إن طرز البناء هذه شرٌ كلها ، لا ، فهي برغم كل ما يقال فيها لا تخلو من محسنات .. ولكننا نحسب أن حرية الإنسان في بيته ، وأن الإبقاء على الشرف والفضيلة سليمين لا ينتقص منهما شيء ، نحسب أن ذلك له من الأهمية ما يجعله فوق كل (محسنات) مهما كانت كبيرة أو صغيرة .

وقبل أن تتعاظم علامة التعجب على وجهك ـ يا قارئي ـ بسبب ما تتوهم من أننا أقحمنا عليك إقحاماً ، وبلا سابق تمهيد ، كلمات غالية وذات دلالة وقدسية مثل « حرية وشرف وفضيلة » .. دعني أحدثك عن دور (الشباك) ، والشباك فقط (من كل البناء الغربي) في الانتقاص من الحرية الشخصية ، وفي إفساد الخلق والفضيلة .

☆ ☆ ☆

إن طبيعة الهندسة للأبنية الفرنجية ، بطوابقها المتراكبة المتراصة عمودياً وجبهياً ، والمتقابلة بإحكام على شتى الارتفاعات في كثير من الأحيان . إن طبيعة الهندسة تلك ، عوضت بكثرة النوافذ المحيطة بظاهر البناء ، عن الفسحات السماوية التي كانت للدور العربية ، في محاولة منها لتبديد الظلمة الدامسة والجو الخانق ، في جوف البناء الحديث . فكان من نتيجة ذلك أن غدا الإنسان ـ وهو في بيته ـ مكشوفاً لكل جار قبالته ، حتى لكأنه في وسط الشارع ، فاختنقت الحرية الشخصية في البيت ، إلا إذا استبدلناها بخنق

مضاعف للبصر والرئتين بإغلاقنا النوافذ وبإحكامنا إسدال الستائر ، فعندها لا نمنع عنا المتلصصين وحسب ، وإنما النور والهواء أيضاً !

وكان من نتيجة ذلك ـ من جهة أخرى ـ أن غدت النوافذ رئات حساسة ، تتنفس منها العمارات وساكنوها ، فطال الوقوف وراءها ، أو الجلوس بجوارها ، والتحديق منها ، والإطلال من خلالها .. فكان أن تحولت الشبابيك إلى أعشاش غرام ، يرخم فيها المراهقون والمراهقات ، والمتصابون والمتصابيات ، يتبادلون النظرة ، فالابتسامة ، فالسلام ، فالكلام ، فالموعد ، فاللقاء وما يتبع .. ثم لا تسلني بعد ذلك عن « الشرف والفضيلة » وعن مصيرهما المحتوم !!

ومن كان في شك مما نتهم به الشباك ، فليتلطف وليجل معنا جولة قصيرة عبر بعض هذه الصور الغنائية العصرية جداً . والأغاني في رأينا معجم شعبي بالغ الأهمية في التعبير عن طبيعة العلاقات العاطفية التي تتحكم في مجتمع ما بالربط بين الجنسين ، من حيث الوصل ، والهجر ، والشوق ، والصد وغير ذلك .. ومن حيث الأسلوب المتبع في عقد تلك الروابط والصلات الغرامية ، سمواً أو انحطاطاً .

ثم إن الأغاني غالباً ما تعبر بكلماتها ، عن نوعية القيم الجمالية السائدة في مجتمع ما ، وغالباً ما تكون معانيها بمثابة (الترمومتر) ، ولكن ليس لقياس درجة حرارة الطقس ، وإنما لتعيين المستوى الأخلاقي لذلك المجتمع [١] .

فالمجتمع الذي تطفو على سطحه أغنية « ليش ابتستحي مني » و « عنك ما بتطمني » و « زفوني ، زفوني » و « بدي عريس » و « ما بسايل شب

---

(١) نعيذ القارىء الكريم من أن يظن أننا بهذه الأحكام نقوم (بدعاية) للغناء والمغنين !! إنه تقرير للحقيقة الواقعة ـ كما نراها ـ أي إنه وصف لما هو كائن ، وليس حديثاً عما يجب أن يكون .

واستحلى » وما يشبهها من أغنيات .. هو بالتأكيد أقل حياء بكثير من مجتمع يستسيغ ويطرب لأغنية « خايف أقول اللي بقلبي » و « عندما يأتي المساء » و « ختم الصبر بعدنا بالتلاقي » وأشباهها .

☆ ☆ ☆

أما الصور الغنائية التي تبرز دور الشباك في البناء الحديث ، فإنها كثيرة ويصعب حصرها ، غير أن ذلك لا يمنعنا من تتبع العديد منها فيما يلي :

• إن بين الهوى والشباك « كلمة سر » ، فحالما يهمس الهوى في أذن الشباك ، ينفتح الشباك ويعبر الهوى إلى جفون الحبيب يدغدغها ، فيطير منها النوم ويفيق الحبيب متكسراً متغنجاً .

« فتح الهوى الشباك ، والنوم طار مني ، أمانة بترجاك ، تبعد هواك عني ، فتح الهوى الشباك » ..

• وإن « كلمة السر » تلك تتعدى الشباك إلى ستائره ، إذ يكفي الستائر إشارة عابرة من الهوى ، حتى تهتز له طرباً ، وتخفق له حباً ، وتطير به نشوة وسروراً . وهذي هي إحداهن تفشي ذلك إذ تقول :

« شباكنا ستايره حرير ، من نسمة شوق بطير .. بقى لي كتير يا حبيبي ، يا حبيبي بقى لي كتير » .

• وإن شباك الحبيب ، تبدو قضبانه في عين المحب المغازل أغصاناً من الورد المتشابك ، وليست من الخشب المكين أو الحديد الصلب ، فهذا أحدهم يناغي شباك الحبيب بقوله :

« شباك حبيبي يا خشب الورد .. يا خشب الورد » .

• على أن مغنياً آخر يتقفّى آثار (قيس) في التبتل إلى ديار (ليلى) ، إلا

أن صاحبنا المغني لا يتبتل إلى الديار بكليتها ، وإنما يتمسح بشباك (الحلوة) تمسحاً فيقول :

« الحلوة داير شباكها شجر الفاكهة ، وزهر البساتين .. الحلوة » .

• وهذه (شحرورة) تخاطب جارها وتناغيه عبر الشبابيك ، دون أي تحفظ أو خجل قائلة له :

« يا جار الشباك ، تسلم ما أحلاك » .

• على أن (شحرورة) أخرى ، لا يسعها إلا أن تعلن على رؤوس الأشهاد أنها قلقة ، معذبة ، حائرة في أمرها . فهي لا تعرف متى تلمح وجهه من وراء باب أو شباك ، وهي ما تزال تروح وتغدو متنقلة في حركة متناوبة بين الباب والشباك ، على أمل أن تراه ، فاسمعها ماذا تقول :

« م الباب للشباك .. رايحة وجية وراك .. لكن مش طَيْلاك ، من باب ولا شباك » .

• غير أن المطاف عندما يصل بنا إلى المغنية (.. الصغيرة) سابقاً ، فإننا لا نملك أنفسنا إلا أن ننصت (خاشعين) إلى قصة حبها المأساوية التي تسللت إليها عبر الشباك ، شباك من يسكن (أصادها) - يعني قبالتها - وقد أحبته دون أن يدري :

« ساكن أصادي ، وبحبه ، وبحبه .. حبيبي ساكن أصادي وبحبه » ..

• وينتهي الأمر أخيراً (بإحداهن) إلى شيء من الصراحة (الهيبية) المنفجرة ، فتعلم حبيبها جهاراً نهاراً بأنها أحبته من بعيد ، وعلى الرغم من أنه - الحبيب - عنها بعيد . ونظراً لحبها إياه - على هذا النحو - فإنها تفتح

شباكها لتستجلي طلعته ، ولتطفىء غليل قلبها بالنظر إلى صورة وجهه ، ولكي يكون واثقاً من صدق عواطفها ، فإنها تغني له بحزم وجزم :

« ما بفتح شباك البيت لولا ابيفتح عايبتك .. من بعيد ، لبعيد حبيتك » .

. ولأمرٍ ما نجد أن (الجراءة) تبلغ حدها الأقصى عند (شحرورة الوادي) ، عندما تُطلع أمها على ما يدور بينها وبين عشيقها من (غزل عصري) ، والأم طبعاً أحق من الأب في معرفة ذلك . ولأمرٍ ما نجد أن الغزل لا يطمئن إلى الشباك هذه المرة ، فيتحول عنه إلى الكوة ، إلى (الطاقة) ، علماً بأن الكوى لا تكون في الأبنية الحديثة إلا (لبيوت الـ ..) أو للحمامات على أحسن تقدير . ولنسمعها بماذا تصدح :

« يا أمي طل مِ الطاقة » .

« وعليّ دل مِ الطاقة » .

« غمزني وفل مِ الطاقة » .

رماني بفل م الطاقة ، يا أمي .. يا أمي .. » [1] .

فما رأيك يا قارئي في دور الشباك وأثره على (الشرف والحرية والفضيلة) ؟

أتريد مزيداً من الشواهد ، أم اكتفيت ؟!

---

(١) كتب هذا المقال في صيف عام ١٩٦٣ ، ولابد أن العديد من الأغاني المشابهة قد نزل إلى الأسواق منذ ذلك التاريخ حتى الآن (١٩٧٣) كما أنه لابد أن نسبة المتلصصين (بالنواظير) عبر الشبابيك قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً .

لاحسُو المبرد

من هو الذي لا يلحس المبرد ؟. ذلك المبرد الذي قالوا : إنه استهوى هراً ذات يوم بما عليه من آثار الدسم ، فما زال الهر يلحس ما عليه ويلحس ، إلى أن أخذ يلعق الدم السائل من لسانه وهو لا يدري ولا يحس ، بل كان يزداد نهماً في اللعق كلما ازداد الدم في النزف ، حتى إذا اهترأ معظم لسانه ، انتبه ، ولات حين مُنتبَه .. وهيهات أن ينفع بعدُ الانتباه ..

☆ ☆ ☆

مَن مِن القوم إنسانٌ لا يلعق دم لسانه على مثل هذا المبرد ؟؟

إن الذي لا يلعق هو ـ في رأينا ـ ذلك الذي لا يشده إلى الدنيا أيّ هوى ، ولا يغريه بها أيّ مطمع . إنه الذي يعلو عليها ولا يسمح لها باعتلائه .

إنه الذي يزهد فيها زهد القادرين ، ويأخذ منها أخذ القانعين .

إنه الذي لا يعطيها من جسمه وفكره إلا بقدر ما يحفظ له جسمه وفكره ، لأنها في نظره « متاع الغرور » .

أما الذي تعلق قلبه بالدنيا بألف هوى وهوى ، وشد إليها بألف مطمع ومطمع ، أما الذي جعل الدنيا مبلغ همه ونهاية علمه ، فما أشقاه . وما أتعسه !!

إنه ليحس بأنها تزداد بعداً عنه كلما ازداد قرباً منها .إنه ليزداد شغفاً بها وتشبثاً بأذيالها كلما أحس بأن هواه أوشك أن يرتمي بين يديه مذعناً ، أو أن أوطاره ومآربه أصبحت دانية القطوف منه ، قريبة المجتنى ، وهكذا .. إلى أن

يشوِّل العمر ، ويتصرَّم الشباب ، ويذوي العود ، وتقترب النهاية أو تقع ، وهو ما يزال في بحر لجي . النزوة تسلمه إلى النزوة ، والمأرب إلى المأرب ، والأمل الدنيوي العريض إلى أمل أعرض منه .

واليقظة قد تحصل ، والانتباه قد يأتي ، ولكن كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا » .

نعم آنئذ ينتبهون ، بعد أن يكون كل منهم قد أراق دم حياته على مبرد المطامع المهلكة ، والمنازع الأرضية الفاسدة ، والأهواء الهابطة ..

وما أبلغ وأصدق قولك يا رسول الله عندما قلت :

« من كانت الآخرة همه ، جمع الله له شمله ، وجعل غناه بين عينيه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » .

« ومن كانت الدنيا همه ، فرق الله شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما كتب له » [١] .

(١) أخرجه الطبراني وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما .

المترفون في القرآن

أمر يلفت النظر ، وشيء يثير التســـاؤل . (المترفـون) يتردد ذكرهم في القرآن الكريم في ثمانيـة مـواضع عِلى الأقـل ، وفي هـذه المـواضع الثمانيـة لا يـذكرون إلا في معرض التشنيع ، بحيث أن الخمرة أو السرقـة مثـلاً تبـدو ذنبـاً عادياً إذا ما قورنت (بالترف) .. فلماذا يا ترى ؟. وما السبب ؟.

وقبل أن نحاول الإجابة ، لابد لنا من تحديد المصطلح ، وبعبـارة أخرى : تعريف (المترف) وبيـان المقصود من (الترف) ، ولبلوغ ذلـك يجمل بنـا أن نستنطق أحد المعجمات المشهورة الموثوقة . وليكن (القاموس المحيط) .

جـاء في (القـامـوس) : ترف : تنعّم . أترفتـه النعمـة : أطغتـه . ترف فلان : أصر على البغي . المترف : المتروك يصنع ما يشاء لا يُمْنَع ، والمتنعم لا يمنع من تنعمه ، والجبار .

إذاً : (المترف) هو من أطغته النعمةة وأبطرته . والمترف هو الجبـار الـذي يصنع ما يشاء ويفعل مـا يريـد ، مصراً على البغي لا يحول عنـه ولا يزول ، ولا يعرف لله حقاً في ماله ، ولا للسائل والمحروم نصيباً في ملكه .

وإذاً : (فالترف) مقرون بالغنى وملازم له لا ينفك عنه ، إلا أن هـذا لا يعني أن كل غني مترف ، فـالعكس ليس بصحيـح ، فكل مترف غني ، وليس كل غني مترف .

ولكن هذه المحصّلـة لا تعني بـدورهـا أي التماس لتبرئـة الأغنيـاء من ذيلـة (الترف) ، إذ إن الترف من الوجهة الإحصـائيـة والواقعيـة يكاد يكون صفـة لازمة لكل غني ، ومصداق هذا قوله تعالى في سورة العلق : ﴿ **كَلا إنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغىٰ . أن رَآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾ فنحن قـد نجـد غنيـاً واحـداً غير مترف ، همـه

الإنفاق في سبيل الله وفي أوجه الخير والصالح العام للمجتمع ، مؤثراً على نفسه ، شاكراً للرازق نعماءه ، في حين أننا نجد بالمقابل مائة غيره يعيثون في الأرض بغياً وفساداً ، لا حمد ولا شكر .. يؤيد ذلك قوله تعالى في سورة سبأ : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِن عِبَادِيَ الشَّكُور** ﴾ . على أن هذه النتيجة بدورها لا ينبغي أن يفهم منها أننا نبارك الفقر ونشجع عليه ، لا ، أبداً ، بل كل ما نريده هو التحديد الموضوعي المجرد لمعنى الترف وما يتصل به سبباً ونتيجة .

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الترف قد يلازم (السلطة) بدلاً من الغنى ، ولا سيا في المجتمعات المتخلفة الحاضرة . إن السلطة أصبحت سبباً رئيسياً مهماً في ظهور الترف ، داءً وبيلا مهلكاً للبلاد والعباد .

* * *

نعود الآن إلى القرآن الكريم متسائلين : ما الصورة التي رسمها لهؤلاء المترفين يا ترى ؟ ولماذا رسمها على نحوٍ معين يثير الكراهية ويبعث على الاستنكار ؟.

ـ ١ ـ

أما صورة المترفين في القرآن الكريم ، أما وصفهم فيه ، فقد تؤديه أو تجمله النقاط التالية :

ـ (المترفون) فئة غاشمة ظالمة ، قد تعترف هي بظلمها وتحس به ، ولكن بعد فوات الأوان ، بعد أن تستنفد طاقاتها الشريرة كلها ، حيث لا يبقى إلا غضب الله المؤكد الوقوع ـ قال تعالى : ﴿ ... **فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لا تَرْكُضُوا ، وارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُم فِيهِ ومَسَاكِنِكُم لَعَلَّكُم تُسأَلُونَ . قَالُوا : يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ [1] .

---

(١) الآيات : ١٢ ـ ١٤ من سورة الأنبياء .

ـ و (المترفون) مدموغون (بالإجرام) إضافة إلى كونهم ظالمين . قال تعالى : ﴿ واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ، وكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

ـ و(الترف) ملازم للكفر ونكران اليوم الآخر ، كما أن المترفين قوم طعّانون بالأنبياء مشككون فيهم منذ عهد هود ـ على الأقل ـ قال تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِهِ ـ هود ـ الذين كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُم فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هَذَا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُم ... ولَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُم ، إنَّكُم إذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

ـ و(المترفون) قوم مصرون على الضلالة ، موسومون بالحنث العظيم (الشرك) وبالمكابرة والعناد في الباطل . قال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَال . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ . لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ . إنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنْثِ العَظِيمِ ﴾ (٣) .

فالإصرار على الشرك قرين الترف ، والترف بدوره (وسام) يحمله المترفون على صدورهم ، وقد نقش عليه هذا الثالوث الفظيع : (سموم ـ حميم ـ يحموم) .

ـ و(المترفون) هم طلائع المعوّقين لكل رسالة إصلاحية ، وهم أول المصدّين لرسل الله وأنبيائه . هم رأس الحربة المسموم الذي يتلقاه ـ أول ما يتلقاه في أمته ـ صدر الرسول المنذر ، أو المصلح المرشد على مر الدهور . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إنَّا بِمَا أُرسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ـ يا محمد ـ فِي

(١) الآية : ١١٦ من سورة هود .

(٢) الآيتان : ٣٣ ـ ٣٤ من سورة المؤمنون .

(٣) الآيات : ٤١ ـ ٤٦ من سورة الواقعة .

(٤) الآية : ٣٤ من سورة سبأ .

قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا : إنَّا وَجَدْنا آبَاءَنَا عَلى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ ﴾ [١] .

ـ و(المترفون) طغمة جهولة ، غبية ، مستعلية ، متغطرسة ، تظن أن قوة (المال والرجال) التي مكنتها من الظلم والتحكم والاستعلاء في الدنيا ، تنجيها من العذاب الأكبر المحقق في الآخرة . قال تعالى : ﴿ ... وقالوا ـ المترفون ـ : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأَوْلاداً ومَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [٢] .

ـ و(المترفون) ـ برغم ذلك كله ـ رعاديد خوارون ، جبناء جزعون ، لا يثبتون للمحنة والعذاب ، وسرعان ما يتساقطون مترغين مستغيثين . ولكن هيهات هيهات ما يطلبون . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذَابِ ـ يوم بدر ـ إذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لا تَجْأَرُوا اليوم إنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ . قَدْ كَانَت آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُم عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴾ [٣] .

وقال تعالى : ﴿ ... فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إذَا هُم مِنْهَا يَرْكُضُون . لا تَرْكُضُوا وارْجِعُوا إلَى مَا أُتْرِفْتُم فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ [٤] .

ـ و(المترفون) هم سبب كل بلاء عظيم يحل في أمة من الأمم ، بل هم عندما يتعاظم عددهم ، ويتفاقم شرهم ، ولا يوجد في الأمة مصلحون يردعونهم ، هم آنئذٍ عامل الفناء الرهيب ، يفني الشعب الذي يحتويهم ، والأمة التي لا تأخذ على أيديهم . قال تعالى : ﴿ واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ

---

(١) الآية : ٢٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآية : ٣٥ من سورة سبأ .

(٣) الآيات : ٦٣ ـ ٦٥ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيتان : ١٢ ـ ١٣ من سورة الأنبياء .

وكَانُوا مُجْرِمِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيهلِكَ القُرىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (١) .

- و(المترفون) ليسوا سبب البلاء وعامل الفناء في الأمة وحسب ، بل هم الأداة أيضاً في ذلك الفناء .

إن حكمة الله عز وجل اقتضت أن يختار للشر - عندما يوقعه بقضائه وقدره - أهله ، وأن يختار للخير أهله . وفي الحالين يجري القضاء والقدر على أيدي الذين اختارهم الله لذلك .

وإن حكمة الله هذه هي نفسها التي اتخذت المترفين (أداة) للشر ، (أداة) لهلاك القرى ، ولتدمير الديار بما فيها ومن فيها من صالحين ومفسدين . المفسدون بفسادهم ، والصالحون بسكوتهم على ذلك الفساد . قال تعالى : **﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرِيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ، فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾** (٢) .

- ٢ -

أما لماذا كانت تلك هي صورة المترفين يرسمها القرآن الكريم : منفِّرة ، منكَرة ، كريهة ، سوداء ؟. فذلك مرده إلى أن :

- « المترفين أشد الناس استغراقاً في المتاع والانحراف والذهول عن المصير » (٣) .

- ولأن « المترفين في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين ، الذين يجدون المال ، ويجدون الخدم ، ويجدون الراحة ، فينعمون بالدَّعة وبالراحة

---

(١) الآيتان : ١١٦ - ١١٧ من سورة هود .

(٢) الآية : ١٦ من سورة الإسراء .

(٣) في ظلال القرآن (ج ١٨ ص ٣٧) .

وبـالسيـادة ، حتى تترهل نفوسهم وتـأسن ، وترتع في الفسـق والمجـانـة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ في الأعراض والحرمـات . وهم إذا لم يجـدوا من يضرب على أيـديهم عـاثـوا في الأرض فسـاداً ، ونشروا الفـاحشـة في الأمـة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليـا التي لا تعيش الشعوب إلا بهـا ولهـا ، ومن ثَمَّ تتحلّلُ الأمـة وتسترخي ، وتفقـد حيويتهـا وعنـاصر قوتهـا وأسبـاب بقـائهـا ، فتهلك وتطوى صفحتها » [1] .

ـ و« لأن غيرهم يتبعهم ، ولأنهم أسرع في الحمـــاقـــة ، وأقـــدر على الفجور » [2] .

ـ ولأن « الترف يفسد الفطرة ، ويغلّظ المشاعر ، ويسد المنـافـذ ، ويفقـد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب ، ومن هنا يحـارب الإسلام الترف ، ويقيم نظمه الاجتماعية على أسـاس لا يسمح للمترفين بـالوجود في الجماعة الإسلامية ، لأنهم كالعفن يفسد ما حوله ، حتى لينخر فيـه السوس ، ويسبح فيه الدود » [3] .

---

(١) المصدر السابق (ج ١٨ ص ٢٠) .

(٢) تفسير البيضاوي ص ٢٢٠ .

(٣) في ظلال القرآن (ج ١٨ ص ٢٨) .

عاش البنطلون

« عاش البنطلون .. آسرٌ ، لَدْنٌ ، متموّج ، مِغناجٌ ، عابث ، يفتتح بكل زهو ! يتنقل هذا الحريري الأنيق على ذراع الليل ، ويشد إليه الأنظار من كل صوب !.. صاحبته إحدى أميرات الأساطير !.. » .

☆ ☆ ☆

ليس ذلك كلاما ممَّا يرفع به صوته سَمْسارٌ قوَّاد في سوق الأجساد . وليس ذلك تعليقاً للإغراء ، كتب تحت إحدى صور الدعاية المعروضة في شارع عام ، على واجهة علبة من علب الليل ، أو سرداب من سراديب (البَسْط والكيف) ، أو كهف من كهوف (الجنس) في مدينة كبرى [1] !!..

كما أنه ليس وصفاً من نسج الخيال نطلع به على القارىء من عندنا ..

إنه كلام مكتوب ومنشور . عفواً ، إنه (الأدب الرفيع والبيان البديع) ، تطلع به علينا إحدى المجلات العربية « الغراء » ، تعلق به تحت صورة لامرأة محترفة ، لَعُوب ، من عارضات الأزياء ، وهي تلبس نوعاً من (البناطيل) ، وتقف وقفة معينة ، تثبت فيها أنه ـ أي البنطال ـ (يفتتح بكل زهو) فعلاً !!.

وما على فتياتنا بعد ذلك إلا أن يسارعن إلى الاقتناع بأن (البنطلون الفضفاض) هو أحدث (موضة) ، وآخر تقليعة من تقليعات الموسم ! وأن أول ثمن تقبضه من تلبس هذا البنطلون هو « أسر الرجال وشد الأنظار » !!.

☆ ☆ ☆

(١) آثرنا استخدام كلمة (كهف) على (كاف) مع أن الثانية أحدث وأكثر تقدمية ؛ رأفة بالقراء الدراويش الذين لا يعرفون أن (كاف = كهف) في مثل قولنا : (كاف دي روا) يعني (كهف الخواجة دروا) أو أن (الكازار = القصر) وهكذا ...

إنه الذوق المحتشم جداً ، تحمله إلينا عبارات في غاية (التهذيب ، والكياسة ، والحياء) : « لدانة غنج ، عبث ، تفتح .. » .

إنه إحدى صور الإعلان ، إعلان ما بعد « النكسة »[1] بشكل خاص ..

إنه نموذج واحد من آلاف النماذج اليوميّة في صحفنا ومجلاتنا ..

إنه أسلوب (التجار) و (الفجار) معاً ، ذاك الذي أشرنا إليه في مقدمتنا ..

إنه استدراج (حواء) إلى المواقع التي يتمكنون فيها من ردم (حواء) تحت أنقاض الخسة التي يريدون ، والمهانة التي يبتغون !! فما رأيك يا أختاه ، يا (حواء) ؟!.

هل لهذا العبث خلقت ؟!.

هل من أجل هذا الاتّجار صنعتك يد القدرة الإلهية ، وقالت لك : كوني (نصف المجتمع) فكنت ؟ وصيري (إحدى رئتيه) اللتين يتنفس بهما الحياة ، فصرت ؟!.

* * *

في شريعة دعاة « التحرر » و « التقدم » ـ والتحرر الحق من الأوهام والخرافة ، والتقدم الصادق نحو الخير والعدل ، على رأسي وعيني ـ . أقول : في شريعة أولئك ، تلك هي مكانتك ، وقد رأيت نموذجاً منها ، وذاك هو بعض دورك المرسوم عندهم ، ولا حاجة لمزيد من التعليق عليه .

أما في شرعة الله ، فإن التكريم الذي خصك به الخالق العظيم ، هو تكريم لا يطاله أي تكريم آخر ممّا ورد ـ حقيقة أو وهماً ـ في أية شريعة من شرائع

(١) لاحظ ضرورة النطق بالكلمة في منتهى النعومة والهمس لكي لا تتأثر نفسياً !!.

البشر ، أو حتى ممّا يتطلع إليه أي مخلوق سواك من إنس أو جن !!.

أليس حديثاً نبوياً ، هذا الذي يقول فيه نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه : « الجنة تحت أقدام الأمهات »[١] ؟!.

بلى إنه لحديث نبوي .. بلى وإنّ الجنة ـ وهي أسمى ما يطمح إلى بلوغه مؤمن على وجه الأرض من هدف في آخرته ـ هى تحت قدميك أنت ، نعم أنت !!.

قد يكون التعبير النبوي من الوجهة اللغوية ، تعبيراً مجازياً .. إلا أنه يحمل الحقيقة كل الحقيقة ، من حيث تشريف المرأة ، وإعطاؤها قيمتها المعنوية والإنسانية على مر العصور وكرّ الدهور ..

ولا تقولي : إنه حديث خاص بالأمهات ، فأنت الآن واحدة من اثنتين : إما (أم) وإما صائرة إلى أم مؤمنة فاضلة عاقلة إن شاء الله . وليخسأ (التجار) و (الفجار) .

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم .

الأنصاف

قال محدثي : ما كرهت شيئاً في حياتي قط ، كما كرهت الأنصاف من الأعداد .

قلت : غريب شأنك يا صاحبي ، كيف يكون للإنسان أن يكره شيئاً مجرداً ؟

قال : ليس الأمر كما فهمت ، فإنما أنا أكره من الأعداد معدوداتها . فمثلاً : أنا أكره أنصاف الرجال ، وأنصاف الفقهاء ، وأنصاف الحلول ، وأنصاف النساء ، وأنصاف المتعلمين ، وما شئت من أنصاف ...

قلت : وكيف ذلك ؟

قال : إن الأشياء عموماً ترى في الطبيعة على حالة من اثنتين : حالة الكمال النسبي ، أو حالة النقص . فأما حالة الكمال النسبي : فتتمثل من جهة العدد بالعدد الصحيح الذي لا كسر معه ولا هو بالكسر . وتتمثل من جهة المعدود بقولنا : هذا رجل ، هذا فقيه ، هذا حل ، هذه امرأة ، وهكذا ..

وأما حالة النقص : فتتمثل من جهة العدد بالكسور ، ولعل أشهرها وأبرز ما يعبر عنها هو « النصف » . وتتمثل من جهة المعدود بقولنا : هذا نصف رجل ، هذا نصف فقيه ، أو نصف حل ، أو نصف امرأة ، أو نصف مسلم ، وهكذا ..

قلت : وما علاقة هذا الذي ذكرت بمشاعر الكراهية التي بها بدأت حديثك ؟

قال : إن العلاقة وثيقة ومحكمة ، ذلك أن أنصاف الأشياء تحمل في طياتها

جميع عوامل التناقض والنقص ، مما يجعل التعامل معها في منتهى الصعوبة ، فضلاً عن أنها ـ الأنصاف ـ هي « السوس » الأزلي الذي ينخر في أجساد الأمم فيفسدها ، وفي كيان الحضارات فيقرضها ويمحوها .. ولهذا استحقت شديد كرهي . بينما الأشياء المتكاملة نسبياً ـ وأقول نسبياً لما تعلم من أن الكمال المطلق هو لله وحده ـ لا تحمل في طياتها ذاك التناقض أو النقص ، بمعنى أنها تقوم على التوازن ، وتتسم بالإيجابية ، وتعبر عن الحقيقة ، ولا يكون الزيف شيئاً من لوازمها ، وذلك كله مما يجعلها موضع حب واحترام من ذوي العقول والبصائر .

قلت : كأني بك صرت إلى متفلسف . فهل لك أن تزيدني إيضاحاً ، وتخاطبني على قدر فهمي ، فتمثل لي متى يكون الشيء نصفاً ، ومتى يكون كلاً ؟

قال : لك ما تريد ، وإليك تمثيلاً لما أعني :

ـ يكون الرجل نصف رجل عندما يختلط على الناظر أمره ، فيشك فيه أرجل هو أم امرأة ؟ ذكر أم أنثى ؟. لدرجة لا يتمكن معها من الحكم اليقيني عليه إلا بالمشاهدة المباشرة والعيان ، تماماً كا يفعل الأطفال مع صغار قطتهم التي ولدت حديثاً !.

ـ ويكون الفقيه نصف فقيه ، عندما يكون ناقص العلم والفهم . كلُّ ما تأتّى له من التحصيل ، بضع عبارات لا يفتأ يلوكها حيثما جلس واعظاً ، أو يترنم بها أينما اعتلى خطيباً . كل رأس ماله مظهر ما يزال يصقله ، وهندام لا ينفك يعدّل فيه .

ـ ويكون الحل نصف حل ، عندما لا تحسم الأمور حسماً من الأصول ، وعندما تظل للفتنة أذرع ورؤوس ، وعندما تكون مهمة القاضي هي تطييب

خاطر المظلوم وليس الأخذ على يد الظالم .

تلك هي بعض النماذج من (الأنصاف) فهل فهمت .

قلت : نعم فهمت ، وفهمت أسباب كرهك لها أيضاً ، وإني لأكاد أشاركك مشاعرك بحذافيرها ، ولكن هلاً زدتني فأزداد بهم معرفة ؟

قال : الأنصاف لا حصر لهم ، فبأي الأنصاف تريد أن أزيدك معرفة ؟

قلت : أريد أن تعرفني على أشدهم خطراً ، فعسى أن أجانبهم وأتحاشى خطرهم .

قال : (الأنصاف) خطرون بلا استثناء ، إلا أن أشدهم خطراً على الأفراد والجماعات ـ فيما يبدو لي ـ هم أولئك الذين جمعهم أحد الحكماء القدامى ـ وقد نسيت اسمه ـ بقوله :

أربعة أنصاف ، فيها هلاك العباد :

ـ أنصاف الأطباء لأنهم يتلفون الأبدان .

ـ وأنصاف الفقهاء لأنهم يزيّفون الأديان .

ـ وأنصاف المسلمين لأنهم يستلُّون الإيمان .

ـ وأنصاف الحكام لأنهم يفرّطون بالأوطان .

قلت : أما أنصاف الأطباء ، فهم كثيرون بيننا ، وإني بلوتهم ، وعرفت ما يرتكبون .

وأما أنصاف الفقهاء فقد وصفتَهم لي آنفاً فبئس ما يفعلون ..

ولكن ماذا عن (أنصاف الحكام) و (أنصاف المسلمين) ؟

قال : لن يكون في مقدوري أن أحدثك إلا عن واحدٍ منهما فقط ، وإلا

أحرجتني وورطتني فيا لا تحمد عقباه . فاختر أيها تريد ؟

أطرقت ملياً أتمعن في مرمى كلامه ، ثم أدركت دخيلة نفسه وحراجة موقفه ، ولم أشأ توريطه ، فقلت :

حدثني عن أنصاف المسلمين إذاً فإني لم أسمع بهم قبل الآن .

قال : هؤلاء أناس آمنوا ببعض الإسلام وكفروا ببعض ، فترى الواحد منهم يحج ولكنه يتعاطى الربا ! أو يصلي ولكنه لا يستر عرضه ! أو يصوم ولكنه يعاقر الخمرة ولا يتورع عن ارتكاب المحرمات ! وربما كان طويل السبحة كثير الذكر بلسانه ، غير أنه بخيل جبان أو مداهن خوار !!

إلا أن أنصاف المسلمات نمط آخر . فترى الواحدة منهن ـ إن كانت أماً ـ تطيل ثوبها بينما تقصّر لبنتها وتمعن في زخرفتها على الملأ حتى لتجعل منها عارضة أزياء ! أو أنها هي وبناتها يبالغن في التبرج ولا يتورعن أن يعرضن على الآخرين ما عندهن من (لحومات) ، وإذا ما نادى المؤذن ، استترن واحتشمن وقمن إلى الصلاة !!

ولعل أطرف مشهد لهؤلاء أو أسخفه ، هو مشهد إحداهن ماشية مستورة الوجه ، محجوبة الشعر بأصفق المناديل السود ، ولكنها مشمّرة إلى ما فوق الركبة والساق !!

تلك هي بعض النماذج من أنصاف المسلمين ، ولن أستطرد في التمثيل خشية أن ترتاع لما ستجد من أن معظمهم قد مسخوا إلى أنصاف ، إن لم أقل إلى أرباع وأخماس .

قلت : إن خطر هؤلاء يرتد عليهم أنفسهم بما يَلْقَوْنه من ضنك المعيشة في الدنيا وعذاب الآخرة ، فما لنا ولهم ؟ وما دورهم في تشويه الإسلام ؟ واستلال الإيمان ؟

قال : إنك واهم فيا ذهبت إليه وهماً كبيراً ، أو أن حكمك عليهم جاء قاصراً مبتوراً .

إن الذين لا يأخذون الإسلام جملة وتفصيلاً ، يقدّمون بأفعالهم وبتصرفاتهم تلك أمثلة مشوهة عن الإسلام الذي يُظن فيهم ، وهذا من شأنه أن يثير سخرية الأعداء ، وأن يزعزع إيمان المبتدئين ، كما من شأنه أن يضيّق فرص التوبة أمام الضالين والمنحرفين ، هذا إن لم يجعلهم ـ الضالين ـ أكثر تمسكاً بضلالهم وانحرافهم ، وأكثر رضى عن نهجهم لما يجدون في هذا النهج من انسجام وعدم ازدواجية . إذ أنهم قليلون جداً أولئك الذين ينظرون بإنصاف وعمق ، فيميزون بين (الإسلام) ديناً محكماً متكاملاً مبرّأ عن التناقض والزيف ، وبين هؤلاء (الأنصاف) على أنهم مشوّهون مزيّفون . وعلى هذا فهم لم يلحقوا الضرر بأنفسهم وحسب ، وإنما بالآخرين أيضاً وهنا مكن الداء . ورحم الله ذلك الداعية الإسلامي الكبير الذي قال :

« خذوا الإسلام جملة أو دعوه » فإنه كان نافذ البصر بعيد النظر .

قلت : أفادك الله ، كم ذا أفدتني ، ولكن قل لي : هل تعرف أحداً من الأسلاف كان يكره (الأنصاف) كرهك لها ، ويجد فيها من الشر والضر على الأفراد والجماعات ما تجده أنت ، ويرى أن (العدم) خير من (نصف الوجود) ؟

قال : ما أكثر ما أعرف منهم وأحفظ لهم من أقوال .. أما سمعت بقول شاعرهم :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود

وبقول شاعرهم الآخر :

ونحن أنـاس لا تـوسـط بيننـا   لنـا الصـدر دون العـالمين أو القبر ؟

قلت : بلى سمعت ، ولكنني امرؤ كثير النسيـان ، ولعلي أثقلت عليـك بأسئلتي ، فجزاك الله عني خيراً .

الأذناب

قال محدثي : لقد أعربت لك بالأمس عن شديد كرهي (للأنصاف) ، ثم انفض مجلسنا قبل أن أحدثك عمّن هم أخطر لديّ من الأنصاف ، ومن هم - في دفتري - لا يستحقون إلا الكره الأشد ، إن لم أقل الاحتقار !

قلت متعجباً : ومن هم في رأيك ؟! وهل بعد الأنصاف أناس يستحقون الكره والاحتقار ؟

قال : نعم وإنهم (الأذناب) .

قلت : سامحك الله ، هل تستخف بي ؟ وإلا فكيف هذا الانتقال في الحديث من (أنصاف) البشر إلى (أذناب البقر) ؟

قال : وسامحك الله أنت أيضاً ، فإني أراك امرأ تتناول المعاني بسطحية .

قلت : إذاً هل تتفضل عليّ بتوضيح ما خفي عليّ فهمه ، وغاب عني معناه من (الأذناب) ؟

قال : أمري لله ، وهذا تفصيل ما تطلب :

« الأذناب يا أخي جمع ومفرده ذنب . والذنب هو كل استطالة زائدة ، أو كالزائدة تكون ملحقة بؤخرة الشيء ، لاصقة به كقطعة منه ، أو لاحقة به كتابع له ، وهذه الاستطالة لا تكون للبقر وحسب كما توهمت ، وإنما تكون لجميع الحيوانات ، وتكون للنبات أيضاً ، كما تكون أحياناً لبني الإنسان ، وعلى هذا فالأذناب كثيرة وليس لها حصر ! » .

قلت : وهل موقفك العدائي ، هو واحد من جميع أنواع الأذناب ؟

قال : إن موقفي عموماً هو الازدراء كما نوهت إليك . ولكن هذا الموقف

يختلف درجة من ذنب إلى آخر . فبينما تراه حاداً تجاه نوع معين ، تراه أقل حدة تجاه نوع آخر ، حتى لتراني في بعض الحالات متعاطفاً مع بعض الأذناب تعاطفاً ما أظن أحداً ينكره عليّ !

قلت : وهل لك أن تمثل لي على ذلك ، فأنا امرؤ لا أفهم بالمجردات ؟

قال : وبأي الأذناب تريد أن نبدأ .

قلت : بالأذناب التي تقع أعيننا عليها دائماً ، أعني أذناب الحيوانات ، فأنا أصلاً لست أرى لغيرها من المخلوقات أذناباً ، وإنني أجاريك الآن ولا أناقشك .

قال : وأنا لن أضطرك للنقاش على أية حال ، ولسوف ترى أن كل ما أدّعيه صحيح ، وأنني أنا الذي سأجاريك وهذي هي مواقفي الشعورية من أذناب الحيوانات :

« إن أذناب الزواحف كالأفاعي وغيرها ، وأذناب بعض الحشرات كالعقارب وسواها .. شيء يستثير النفور في الإنسان وربما الخوف والكزازة ، فمنظرها مقيت فظيع ، وأنا أمقتها ولا أتصورها .

في حين أن أذناب المواشي من بقر وخيل ونوق وما إليها .. شيء يقف شعور المرء تجاهه مراوحاً بين الإحساس بالتقزز لقذارة المنبت ، وبين الإحساس بالرضى لكون الذنب هنا يستر عورة ، ويدفع عن صاحبه أذى .

بينما أذناب الطيور من شحارير وديوك وعصافير .. تبعث في النفس إحساساً جميلاً وتثير فيها تعاطفاً نحوها لما لها من منظر حسن ، وتنويع إلهي بديع في الألوان والأصباغ » .

قلت : وماذا بعد ذلك عن أذناب النبات التي ما سمعت بخبرها من قبل ؟!

قـال : إن أذنـاب النبـات هي أشرف الأذنـاب على الإطلاق ، لأنهـا إذا لم تنفع أحداً فإنها لا تضره .

فـأذنـاب الفجل مثلاً : منظر أخضر جميل ! وأذنـاب البصل : منظر أجمل في العين ، وأبعث على الشهية في الفم ! أما أذناب الكرز ، فياسلام ! إنها دواء لا أنفع منه لمن أصيب بالرمل في كلاه .

قلت : أراك قد بدأت بعلم وانتهيت بآخر ؟! بدأت بـالأذنـاب ، وانتهيت بالصيدلة والطب !

قال : قلت لك من البـدايـة : إنـك سطحي التفكير . وإلا فكيف غـاب عن بالك أن الحديث منذ بدايته يدخل في اختصاص الطبيب ، أعني الطبيب البيطري ، والطب البيطري هو طب على أية حال ؟!

قلت : إنك امرؤ معتد كثيراً بحسن تصريفـك القول على حسب مـا تريـد من وجـوه ، إلا أنـك أوقعت نفسـك في تنـاقض من حيث لا تشعر ، وهكـذا « الحذِر فإنه يُؤتى دائماً من مأمنه » .

قال : وماذا تعني ؟ أوضح .

قلت : قررت سابقاً أن الأذنـاب « تكون لبني الإنسـان أحيـانـاً » وقررت قبل قليـل « أن حـديثـك بيطري » فكيف تـوفـق بين الحـديث عن الإنسـان والحـديث عن الحيوان ؟ هـذا من جهـة . ومن جهـة ثـانيـة ، كيف تثبت أن للإنسان ذنباً ؟ وأنا أعني هنا إنسان القرن العشرين على وجه التخصيص .

قال : أما الخلط في الحديث بين الإنسان والحيوان ، فهذا أمرٌ لا غرابة فيـه ولا تناقض ، فكلاهمـا أصلاً حيوان . وإذا كنت تشير إلى مـا بينهما من فوارق في العقل والنطق ، فإن حـديثي إليـك ينصبُّ على مـا بينهما من نقـاط التقـاء وليس نقاط افتراق .

وأما كيف أثبت لك أن لبعض بني الإنسان ذنباً ، فردّي على ذلـك أسوقـه إليك من وجوه :

الـوجـه الأول : الأذنـاب نـوعـان : نـوع حقيقي ، وآخر مجـازي . وذنب الإنسان ـ إذا وجد ـ يكون مجازياً لا حقيقياً .

الثاني : قلت لك من البدء : إن الذنب يكون لاصقاً ويكون تابعـاً . فهو في الحيوان لاصق ، على حين أنه في الإنسان ـ إذا وجد ـ تابع غير لاصق .

الثالث : لست أعني أن يكون للإنسان ذنب في مؤخرته ـ كالبهائم ـ وإنما عنيت أن يكون إنسانٌ ما بكليته ذنباً لغيره من بني جنسه .

الرابع : ليست (الذَنبيّة) صفـة لازمـة في جميع بني الإنسـان ، وإنمـا هي خـاصـة ببعض منهم دون بعضهم الآخر . ولعلـك واجـد ـ وإن أنت أمعنت النظر في النـاس ـ أن منهم من لا يصلحـون أن يكـونـوا إلا أذنـابـاً ، بينمـا الآخرون لا يرضون لأنفسهم أقل من (الرأسيـة) منزلـة ومقـامـاً ، وفي وصف هؤلاء يقول الشاعر العربي الحطيئة :

قـومٌ همُ الأنف والأذنــاب غيرهمُ ومن يُسوّي بأنف الناقـةِ الـذنبـا ؟

قلت : أدخلتني في متاهة يا هذا ، فهل لك أن تخرجني منها ؟

قال : بكل سرور ، ولكن حدّد سؤالك أولاً .

قلت : قـل لي بـاختصـار : « متى يكـون لـلإنســان ذنب ؟ ومتى يكـون الإنسان نفسه ذنباً » ؟

قال : الآن حددت سؤالك وأوجزته فعلاً ، ولـك عليّ ألا أكتم عنـك شيئـاً مما أعلم . فأما الشق الأول من سؤالك (متى يكون للإنسان ذنب) ! فجوابه :

عندما يكون رأساً ، أي عنـدمـا يكون ذا مـال أو منصب أو نفوذ . فهـذه

الأنماط من الناس بحاجة دائمةً لمن يمشي خلفها أو حولها . يستر ما قد ينكشف لها من عورات ؟ ويدفع عنها ما قد يطمع بها من حشرات . والناس قد احتالوا على التسمية فطرّفوها إذ قالوا : هذا (زلمة) البيك فلان أو الأمير علان ، وإذ قالوا : هذا زلمة المدير أو زلمة الوزير وما شئت من أزلام . والحقيقة هي أن كل أؤلئك أذناب .

وأما الشق الثاني (متى يكون الإنسان نفسه ذنباً) ؟ فجوابه :

عندما يكون تابعاً لغيره ، يتحرك بين يديه كآلة ، يعيش على نفاياته ، يتحدث بأفكاره ، يقلده في حركاته . ليس له رأي يرتئيه ولا قول يبديه . كل ما يصدر عنه أفعال انعكاسية ، وتصرفات غير إرادية ، كحال الذنب الحقيقي في جسد الحيوان .

قلت : ولماذا كرهك لهم ؟ بل علام ازدراؤك واحتقارك إياهم .

قال : لأن الأذناب على مر الأيام واختلاف الأمم ، هم حثالة البشر ، ونفايات الشعوب . والويل لأمة كثر فيها الأذناب ، الويل الأكبر لها إن غلب فيها الأذناب وسادوا !

قلت : كأني بك أنت السطحي في تفكيرك ، المتعجل في أحكامك !

قال : وكيف توصلت إلى ذلك ؟

قلت : لأنه غاب عنك أن التعامل مع الأذناب ، هو أهون من التعامل مع الرؤوس ، فالأذناب أكثر ليونة من الرؤوس ، وبالتالي فهم أقرب مأخذاً وأكثر طواعية ، وأقل كبراً وغطرسة ، وإذ كانوا كذلك فهم أنفع للخلق ، وأجدر أن يُرتجى منهم الخير ويُؤمَّلَ الحق .

قال : كلامك صحيح . ولكنه كلام من يحكم على الأمور بظواهرها

ويكتفي . أو أنه كلام من لم يتعرض للتعامل مع ذنب في حياته قط ، وإلا لما خدعك المظهر .

إن الرؤوس ـ على علاتها ـ تبقى أهون شراً من أذنابها . فالرأس إن كان خصماً لأحدٍ فإنه يقابله جبهياً ، ويناجزه وجهاً لوجه .

والرأس ـ برغم كل شيء ـ فيه موضع للعقل ومكان للفكر ، كما أن فيه طيب المنشأ وأصالة الجوهر .

بينما الذنب لا يأتي خصمه إلا التفافاً والتواءاً . والذنب لا موضع فيه لمخ ولا عقل ، كما أنه بحكم منشئه ومنبته يظل بعيداً عن النقاوة والطهر ، قريباً من الخساسة والخبث . والرأس بعد ذلك ، كلامه فصل ورأيه أصل ، يتصرف بثقة ، وأفكاره تصدر عن ذاته هو لا عن ذوات الآخرين . ومن هنا : فإن الرأس يملك أن يقول (لا) ويملك أن يقول (نعم) ، يملك أن يعطي عهداً أو يبرم وعداً . يملك أن يكون مسؤولاً عن أفعاله وأقواله . هذا فضلاً عن أن الرأس ، بالنظر إلى أنه يعرف قدر نفسه فإنه يعرف قدر غيره فلا ينتقص منه . ويعرف حدود الآخرين فلا يمعن بالبغي عليها .

وباختصار فإنه ينطلق في سلوكه من قيم معينة ، ويلتزم بمبادىء محددة ، ويمتثل للحجة والمنطق إذ هو وعاء لهما . ولذا فإن المشكلات عندما تتعقد ، والفتن عندما تتطاول بأعناقها لتزمجر وتنذر ، سرعان ما يتداعى « الرؤوس » ، وإذا ما تداعوا حسم الأمر ووضع الحد وقضي على نذر الشر . وما أروع الخصم إذا كان رأساً !!

ولا فرق أن تكون الخصومة معه ، خصومة فكر ، أو سياسة ، أو دين ، أو مهنة ، أو مذهب ، أو ما شئت من خصومات ...

أما الأذناب فهم على النقيض تماماً :

الذنب يعاني دائماً من عقدة نقص ، وهي (كونه ذنباً) ، ولذلك فهو لا ينفك يحاكي الرأس ، ويصطنع لنفسه المواقف المزيفة في محاولة للتعويض عن عقدة (الذنبية) .

والذنب لديه إحساس خفي مستمر بالتفاهة والضّعة ، فهو لذلك كثيراً ما ينتهز الفرص للانتقال من المؤخرة إلى المقدمة ، رغبة في الانعتاق من ذلك الإحساس ، وتوهماً منه أن مجرد تبديل المكان كافٍ وحده لتغيير الماهية والجوهر .

وهو إذا ما أتيح له الانتقال ، رأيته (يزاود) على الرؤوس في كل مجال ، حتى ليصير « ملكياً أكثر من الملك » ، وحتى ليقف في أقصى المواقع تطرفاً ! أما إذا ما ضرب خصمه فإنه يضربه بلؤم ، ضرب الجبناء المنهزمين . وأما إذا ما حقد ـ وهو حاقد دائم على كل من ليس بذنب مثله ـ فإنه يحقد حقد الأفاعي الموتورة !

ومن هنا ، فإن الرؤوس قد تلتقي وتتفاهم ، ولكن أذنابها تظل تهتز وتتحدى ، وتظل تضطرب يمنة ويسرة تؤرّث الأحقاد ، وتؤبّد الكراهية ، وتعمّق العداوات والخصومات .

الذنب يعرف حق المعرفة بأنه عنصر زائف دخيل متطفل انتهازي ، ولأنه يعرف من نفسه كل ذلك ، فإنه يسعى جاهداً للتضليل والتمويه على أسياده الرؤوس أو على الآخرين .

والذنب بعد ذلك كله وقبله ، يتلقى لا يأمر ، ينفذ لا يفكر ، مملوك لا مالك ، وهو لا عهد له ولا وعد ، لا ذمة ولا ضمير ، لا مبدأ ولا قيم ، لا وجه ولا قفاً !!

قلت : والله مادام الأمر على نحو ما فصّلت ، فإن الأذناب لا يستحقون

الازدراء والاحتقار وحسب ، وإنما يستحقون الاقتلاع من جـذورهم ليلقى بهم في بحرٍ ليس لـــه قرار . وإني لأقف من الآن في صفـــك ، مشـــاركاً إيـــاك مشـــاعرك . ولكن قـــل لي : ألا تجـــد معي أن بعض الرؤوس شر من بعض الأذناب ؟

قال : كأي رؤوس ؟ اضرب لي أمثلة .

قلت : « البيكوات ، الأغوات .. وبعض الرؤساء والمدراء » .

قال : أولاً إن عهد البيكوات والباشوات قد ولّى وزال ، وقـد عفت عليهم الأيام وما تزال ، فلا كانوا ولا عادوا .

ثم إذا كنت قد فهمت مني أنني أعني أذنـابهم : فلاحيهم وزراعهم والعـاملين عندهم ، وأنني أعني بأذناب الرؤسـاء والمـدراء : موظفيهم ومن هم في معيتهم من كتبة ومستخدمين ، فقد أخطأت الفهم خطأ كبيراً .

إنني عنيت بـأذنـابهم : (أزلامهم) ، خـواصهم ، محـاسيبهم ، الـذين هم في العــادة عيــونهم التي تتلصص، وآذانهم التي تتجسس ، وأيــديهم التي تبطش أو تكتب الوشايات والتقارير ، وكلابهم التي تحرس . ولعلـك بعـد أن فهمت مني ما أعني بالضبـط ، لا تخـالفني في أن أي رأس ـ على علاتـه ـ خير من أي ذنب ! على أن هــذا الحكم ـ على صحتـــه ـ لا يمنــع أن يكــون هنــاك بعض الأذنــاب الآدميـة التي هي خير من بعض الرؤوس ، إلا أن هـذا قليل ونـادر ، وهو من قبيل « لابد لكل قاعدة من شواذ » .

قلت : هل لك أن تقرب فكرتك من فهمي ببعض مثل ؟

قال : طلبت يسيراً ، وهاك هذه الأسطورة المشهورة .

« زعموا أن متنفذاً كان شديد البطش في قريته ، بالغ الظلم في رعيته ، في

حياتهم وبعد مماتهم . أما في حياتهم فكان يأخذ منهم ولا يعطيهم ، يكلفهم ولا ينصفهم . أما بعد مماتهم ، فإنه كان كلما مات واحد منهم مضى إلى قبره ليلاً فنبشه ، ومد يده إلى الكفن فهبشه [1] ، لا يكل من ذلك ولا يمل ، ولا يعدل عنه ولا يبدل . وكان الناس من ذلك في ويل وثبور ، يدعون الله عليه بكرة وفي السحور .

حتى إذا جاء يوم ومات فيه هذا المتنفذ الظالم ، خَلّفه من دون رعيته كلها زلمته وصار هو الحاكم ، فذهب يفعل في الأحياء ، ما جعلهم يحسدون الأموات على موتهم . لقد مضى لا يكتفي بقبور الأموات نبشاً ، وبأكفانهم هبشاً !.. وإنما زاد على ذلك إقامتهم على (خوازيق) إرهاباً للمخاليق !. » .

ومنذ ذلك اليوم جرى على ألسنة الناس هذا المثل « رحم الله النباش الأول » .

أفرأيت بعد هذا إلى غلو الأذناب ولؤمهم ، وإلى فرط نكايتهم وكيدهم ؟ .

قلت : بلى رأيت ، وقد زدتني بهم معرفة زادك الله علماً . وزادنا عنهم بعداً ، ووقانا منهم شراً .

---

(١) من العامي الفصيح .

هل تعرف تلك ؟

الباص تأخر وصوله ، وما نزال على الموقف نزدحم ونزداد عدداً تلو عدد .. حديث الاثنين اللذين كانا ورائي لم يتوقف لحظة . كنت غير عابىء به ، لا يصل إلى أذني منه سوى فتاتٍ من اللغط المختلط المتداخل . كل اهتمامي موجه نحو الجهة التي سيقدم منها الباص ، عساي أحظى قبل غيري بموطىء قدم فيه .

رنَّ في أذني هذا السؤال : « أتعرف تلك » ؟. شيء ما شدَّ انتباهي وسمعي إليهما ، بل إلى حوارهما ..

ردّ عليه الثاني : وأيَّ « تلك » تعني . فكل من حولنا « تلكات » !.

الأول : تلك التي تنتظر على الموقف المجاور مع صديقها ، أما تراها ؟.

الثاني : أتعني تلك السمراء ذات الشعر الكستنائي المسبل ؟

ـ نعم .

ـ إنها زميلتنا « رورو » ، أعني (روز) أليس كذلك ؟!

ـ لم تعرف !! أما تلاحظ أن (سيكارتها) تضعها في منتصف فمها ، بينما « رورو » تضعها على الجانب الأيسر تماماً ، وتعض على « فلترها » عضاً خفيفاً .

ـ عفواً .. لم أنتبه إلى وضعية السيكارة .. ولكنني في الواقع انتبهت إلى لون الشعر والقوام . الشعر هو هو ، بطوله ولونه . والقامة هي هي بقدها ، وبتكسرها وغنجها !!

ـ إذا كنت لم تنتبه إلى وضعية السيكارة ، فكيف لم تنتبه إلى العلكة التي

تديرها في فمها ، إن « رورو » ليس من عادتها أن تجمع بين العلكة والسيكارة في وقتٍ واحد ، فكيف غاب عنك ذلك أيضاً ؟!.

ـ الحق معك .. دعني إذاً أفكر قليلاً وألاحظ من جديد .. ولكنه لم يُطل الملاحظة حتى انفجر بملء فيه ، مثل « أرخميدس » يقول : آ .. آ .. وجدتها ، وجدتها .. إنها نهال . أليس كذلك ؟.

ـ وكيف عرفت هذه المرة ؟.

ـ أتستجهلني ، وأنا الخبير بهن . أتحسبني نسيت (نهال) . هذا هو (الطقم) الذي لبسته الأسبوع الماضي لأول مرة ، وجاءتنا تتبختر فيه !. انظر إليه كم هو حديث وأنيق ! انظر إلى فوَّهة البنطال من تحت ، أما تراها كمدخنة الباخرة ، وهذا هو أحدث طراز نزل إلى سوق الخياطين ؟!.

انظر إلى خنصرته الأنيقة عند الركبتين ، أما تراه كيف يضغط عليهما برفق والتصاق ؟

انظر إلى شقة (الجاكيت) أما تراها ممتدة إلى منتصف الظهر بالضبط .

ولكن أتدري ما الغصة في هذا (الموديل) ؟.

ـ ما هي ؟.

ـ الجاكيت طويل جداً !

ـ وماذا فيها ، أليست هذه أحدث (مودة) . إن طوله هو عنصر الجمال والحداثة فيه !

ـ كأنك لم تفهم علي .

ـ قد يجوز ! فهل تتفضل بتفهيمي ؟.

ـ بكل تواضع .. إن الجاكيت الطويل يخفي ما تحته ..

ـ يعني ؟

ـ يعني أنه لا يظهر الردف مجسَّماً كما يجب .

ـ كلامك صحيح (يا عتيق) ، ولكنني أظنك تريد التهرب من الإجابة على سؤالي .

ـ أعده علي ثانية من فضلك ، فقد كدت أشرد عنه فعلاً .

ـ قلت لك : كيف عرفت أنها نهال ؟. إن جميع ما ذكرت من علامات لا تكفي دليلاً على أنها نهال ، فالأزياء بين النساء ـ كما لا يخفى عليك ـ كالمواد التموينية أيام الحرب . فهذه كل الناس يتهافتون عليها ، وتلك كل النساء يتخاطَفْنها ، وبذلك تتعمم عليهن بأقل من أربع وعشرين ساعة .

ـ الحق معك فيما تقول ، ولكن انظر إلى حذائها أما تراه عريضاً مفرطحاً كخف ناقة صبية ، وكأنه من قدام فُرْطوسة [1] خنزير ظريف . ثم انظر إلى النطاق كيف يلمع طرف قفله . أما ترى ما أعرضه وما أجذبه للنظر . أليسا هما بالضبط حذاءها ونطاقها . أنسيت أمسيتنا معها بالمقصف يوم أخذت تتباهى علينا بها . كم حدثتنا عن نطاقها الجديد وحذائها الجديد . وكم أبدينا نحن إعجابنا بها ؟!.

ـ في ظني أنك لم تتحقق بعد من هويتها ، وقد تكون معذوراً لأننا لا نرى إلا منظرها الجانبي ، وحبذا لو أدارت إلينا وجهها ، إذاً لتمكنتَ من معرفتها بأيسر مما فعلت حتى الآن . ثم هذا الثقيل الذي معها ، متى يكف عن الثرثرة والكلام السخيف وتصنُّع الضحك والابتسام .

---

(١) فرطوسة الخنزير : أنفه .

ـ اعتبرني عجزت عن معرفتها ، فهل لـك أن تريحني من عـذابي هـذا وتعرفني بسرعة على شخصيتها ، قبل أن يصل الباص ونرحل ؟.

ـ ما عهدتك تستسلم بسرعة ! سأجيبك ، ولكن قبل الإجابة أعطيك فرصة أخيرة وأساعدك أيضاً في التعرف .

ـ وكيف تساعدني ؟

ـ انظر إلى لفتات عنقها أما تراها رشيقة ؟.

ـ نعم رشيقة .

ـ أمعن النظر إلى شعرها المتهدّل ، أما تراه أكثف من شعر (رورو) وأطول ؟.

ـ نعم أكثف وأطول .

ـ ثم حدّق فيه جيداً ، ألست تجده أسود لا كستنائياً ؟.

ـ ربما ..

ـ انتقل معي إلى منظر الحاجب ، أما تراه ممتداً إلى هذه الجهة أكثر من حاجب نهال وهو أغزر ؟.

ـ صدقت وشرفي !!

ـ تابعني كذلك ، راقب ابتسامتها وزمة شفتيها ، ونفخة سيكارتها في الهواء ، ثم انطباق أهدابها وهي تبدو شبه حالمة عندما تستجيب لنكات صاحبها المتلاحقة ، أما ترى أنها أسرع غزواً للقلب واستئثاراً باللب من حركات نهال ؟.

ـ صدقت ومعتقدي !!

ـ ثم إن نهال و« رورو » يا صاحبي ، قلما تعبأ إحداهما بشعرها إذا ما عبث فيه الهواء . أما هذه فانظر كيف أنها ما تزال تسوّي خصلات شعرها بأناملها الرخصة الغضة ، وتصقله كلما هبت عليه نسمة . هذا دليل على أنها أكثر أناقة من « رورو » ونهال ، ألست معي ؟ .

ـ معك ، معك ، وألف معك .

ـ إذاً بعد كل هذه المساعدات ، أحزر من تكون تلك ؟.

ـ نكاية فيك ، لن أحزر . لن أحزر . وإذا لم تقل لي أنت ، فإنني سأمضي إليها حالاً ، وسأسألها بكل تطفل عن شخصها . وإذا ما حالفني الحظ ، فسوف أستلُّها من هذا العُضروط الذي معها استلالاً ، وسوف أضيف اسمها إلى قائمة معارفي وصديقاتي من بنات حواء ، وأنت تعرف ما أكثرهن !!

ـ أتريد الحقيقة ؟!.

ـ ويلك . وماذا أنتظر منك سواها ، وأنت تعذِّب قلبي وتضنيني منذ ساعة !!

ـ صدّقني ؛ صدّقني ، وأنا أيضاً لا أعرف من هي !. لكنني كنت أحاول تشبيهها ولم أفلح مثلك حتى الآن !!

ـ إذاً كنت تتخذني مسخرة يا محترم ، يا قليل الذوق ؟!.

ـ لا ، لا ، لا تسيء فهمي ، واعتبرني ـ على أسوأ الاحتمالات ـ أختبر صمودك .

ـ وكيف وجدتني ؟.

ـ صمود مئة في المئة !!

شكراً . ولابد من حل اللغز الذي طرحته أنت مهما كلفنا الأمر .

ـ الحق معك ، ما رأيك في أن نقتحم عليهما حديثهما الذي طال ونسألها دون مقدمات : « يا آنسة ، الاسم الكريم من فضلك » ؟.

ـ موافق جداً .. ولكن أنا الذي أسألها لا أنت .

ـ وأنا موافق .. هيّا ، ولك ما تريد .

ـ هيّا .

* * *

حتى تلك اللحظة كنت أسمع تحاورهما ولا أراهما .. عندها التفت إليهما ، ثم تابعتهما بنظري إلى أن وصلا . كانا طالبين من طلاب الجامعة . عرفت ذلك حين لمحت بعض الكتب التي يحملانها بأيديهما . لم أسمع بالطبع ما دار بينهم من حديث فيما بعد ، ولكنني ـ وقد استدارت الآنسة بوجهها نحوي استدارة كاملة لتستقبلهما ـ أدركت دونما أدنى شك أنها هي نفسه ذلك الخنفوس الجامعي « صطّام الشحود » .

كنت قد التقيت به عابراً في الشارع قبل ساعة ، يضم كتبه الجامعية إلى ثديه كما تفعل الطالبات .

وكان قد تتلمذ عليَّ يوم كان يأتيني إلى المدرسة مشياً على الأقدام ، قادماً من قريته الصغيرة ، مسيرة ساعة في وحل الشتاء وطينه . أيامها كنت كلما رأيته يدخل الصف هو ورفاقه بقاماتهم المشدودة ، استطار قلبي فرحاً ، وقلت في سري : بمثل هؤلاء العصاميين الأشداء عما قريب سننتصر !!.

اللذان سيدخلان الجنة بغير حساب

لعلك - قارئي - تظنني لأول وهلة ، سأحدثك عن اثنين من العشرة المبشرين بالجنة ، من صحابة رسول الله ﷺ ؟

أو لعلك تظنني سوف أتناول بالكلام شهيدين قديمين من شهداء الفتح ، أو جديدين من شهداء البطولة والإيمان في معاركنا المستمرة مع أعداء الله والإنسانية ، أعني اليهود ؟

وربما يذهب بك تفكيرك العميق إلى ما هو أبعد من هذا وذاك ، فتحسبني محدثك عن اثنين من كبار الصابرين ، الذين يتلقون قضاء الله بالرضى ، ويتحملون ابتلاءه برحابة الصدر ، دون تبرم أو سخط ، فتشملهم رحمة الله ، فيدخلون تحت الآية الكريمة : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ . وربما ، وربما .. إلى آخر ماهنالك من احتمالات .

على أني لست بصدد الحديث عن أي صنف من أولئك الأصناف ، برغم إيماني الكامل بأن أولئك كلهم من أهل الجنة والرضوان إن شاء الله تعالى .

إذاً عمّن سيكون الحديث ؟ ومن هما هذان « الاثنان » اللذان سيدخلان الجنة بغير حساب ؟. أهما اثنان من الإنس ؟ أم اثنان من الجن ؟ أم اثنان من الملائكة ؟ أم اثنان من الأشباح ؟ أم ماذا ؟.

ثم بأي عمل مجيد خارق للعادة ، أو بأية شفاعة سيدخلان الجنة ؟.

وجوابي إليك : هما (اثنان) ليسا بالإنس ولا الجن ، وليسا من الملائكة ولا الأشباح . إنهما « اثنان » وكفى .

أما بأي عمل أو بأية شفاعة سيدخلان الجنة . فإني أقول : إنهما سيدخلانها :

ـ بشفاعة (الظلم) !! نعم الظلم الكبير الذي يلحق بهما صباح مساء ، ويتحملانه قسراً وقهراً !!

ـ وبسبب الزور الذي يرتكب باسمهما ليل نهار ، طغياناً وكفراً !! .

ـ وبسبب البغي الذي يجتاح الضعفاء ، ويطول الأبرياء والشرفاء ، يبغي به أناس ثم ينسبونه إليهما بهتاناً وإفكاً .

إنهما « اثنان » ما نحسب أن اثنين ظلما مثلهما عبر التاريخ ، قديمه وحديثه . بل لعل التاريخ القديم لم يتعرض إليهما لا خيراً ولا شراً . وإنما الذي تعرَّض إليهما بالظلم والزور والبغي هو تاريخنا هذا ، التاريخ المعاصر .

أما أول هذين « الاثنين » فهو « الشعب » أجل « الشعب » . هذه الكلمة التي ما فتئت ترددها الإذاعات المختلفة مئات المرات كل يوم .

هذه اللفظة التي ما انفكت الصحف والمجلات والنشرات ، تطبعها مرة ـ على الأقل ـ في كل سطر .

هذا المصطلح الذي مازالت تردده ألسنة الساسة والقادة في كل مناسبة مع كل شهيق وزفير .

أجل .. هو نفسه الذي سيدخل الجنة بغير حساب .. وإذا كنت ما تزال متعجباً من كلامي وغير واثق مما أقول ، فتذكر :

كم من حاكم ظالم جائر يقوم فوق هذه الأرض أو تلك ـ من أراضي العالم ـ باسم الشعب ، والشعب لا حول له ولا طول ؟!

وتأمل : كم من ضرائب باهظة تفرض ، وكم من قوانين تُسَنُّ ، و (فرمانات) تُعلن باسم الشعب ، ولمصلحة الشعب ، والشعب لا علم له ولا خبر ؟!.

واذكر معي : كم من أحزاب تؤسس ، ومجالس تصنع ، وصحف تطبع باسم الشعب ، والشعب (كالزوج المغرور) آخر من يعلم ؟!

وكم من أخطاء ترتكب ، وحقوق تهدر . وحروب تُشْعل ، وجنايات تفعل باسم الشعب ، والشعب في المستودع لا يُسأل ؟!.

النائب يترشح للنيابة من أجل (خدمة الشعب) . والوزير يستوزر لكي يكون (خادماً أميناً) للشعب ، والأمير يتطاول بعنقه إلى الإمارة أو الرئاسة لا لشيء ، سوى أن يكون ساهراً يقظاً على مصالح الشعب ، وحارساً حريصاً على راحة الشعب .

والتاجر يكدح ويشقى من أجل تأمين قوت الشعب وحاجيات الشعب .

وكذا الموظف يزاحم ويصاول ويركب شتى المراكب قصد الوصول إلى المنصب ، ولا هم له إلا تيسير مصالح الشعب .

ثم يكون الشعب بعد ذلك ـ يا ويلاه ـ من أولئك جميعهم في ويل وثبور وشر مستطير .. يكون كذلك :

ـ من الموظف أو المدير الذي امتلأت جيوبه بالرشوة والمال الحرام ، فأخذ يشخر وينخر في وجوه المراجعين من أبناء الشعب .

ـ ومن النائب الذي وصل إلى المقام العالي ، فتناسى كل وعوده التي قطعها على نفسه أمام جماهير الشعب .

ـ ومن التاجر الذي لا هم له إلا احتكار القوت والتلاعب بأسعار الحاجيات الضرورية لابن الشعب .

ـ ومن الوزير الذي استدفأ ظهره بالكرسي الوثير ، والقصر الكبير ، والدخل الوفير ، فسكر بنشوة النعمة الطارئة ، وما عاد يسأل ، لا عن شعب

ولا ابن شعب .

ـ ومن الأمير الذي حقق لنفسه حلمها الأكبر ، فأقام بينه وبين الشعب عشرات الجدران ، من الخدم والحشم والحجَّاب ، أو من (السكرتارين) ورؤساء الدواوين .. فلا يصل إليه بحاجة ، إلا كل طويل عمر .

ثم يبقى الإطلال من الشرفات في بعض المناسبات هو وسيلة الاتصال الوحيدة التي تصله مباشرة بجماهير الشعب .

فمن أجل ذلك كله ، ما ذكرنا منه وما لم نذكر ، يرأف الله ـ يا قارئي ـ بحال « الشعب » ، فيغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيدخل الجنة بغير حساب .

* * *

أما ثاني (الاثنين) اللذين تنالها تلك الرأفة الربانية الجانية ، والمغفرة الواسعة ، فهو « المصلحة العامة » !! ولا تستغرب .. فتحت هذه العبارة وبحجتها ، كم من حقوق تُضيَّع ، وكم من مظالم ترتكب ، وكم من مصالح تُعطّل ؟! لا أقول كل يوم ، وإنما أقول كل آن . وإن كنت في ريب مما نقول فاقرأ هذه النماذج من مقتضيات المصلحة العامة .

ـ « بناء على مقتضيات المصلحة العامة ينقل (فلان الفلاني) من وظيفته في مدينة (كذا) إلى أعالي الجبل (كذا) » !

ـ « وبناء على مقتضيات المصلحة العامة ، يعزل (فلان الفلاني) من منصبه في (كذا) ولا يستحق الموما إليه أية تعويضات » !

ـ « وبناء على مقتضيات المصلحة العامة ـ وخلافاً للنظم المرعية ـ يُعيَّن (فلان الفلاني) مديراً للشركة (كذا) » !

ـ « وبناء على مقتضيات المصلحة العامة ، وتجاوزاً لشرط المؤهل الثقافي والفني ، ينـدب (فلان الفلاني) من وظيفته المتواضعة جداً في (كذا) إلى رئيس عام للمؤسسة (كذا) » !

ـ « وبناء على مقتضيات المصلحة العامة يعاقب الموظف (فلان الفلاني) بعقوبة الغرامة (كذا) وعدم الترفيع لمدة (كذا) بسبب (...) » !

ولن أطيل عليك النماذج ففي الفم ماء ، كما أنها لا تعد ولا تحصى !! وكلها كما ترى من أجل خاطر (المصلحة العامة) ليس غير ، ويشهد الله أن (المصلحة العامة) بريئة من ذلك كله براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

* * *

فاللهمّ إياك نسأل ـ ولا نسأل سواك ـ ألا تكتب علينا في هذه الحياة الدنيا ، ما كتبته على الشعب والمصلحة العامة من شقاء وبلاء .

اللهم إياك ندعو ـ ولا ندعو سواك ـ ألا تحشرنا يوم الفزع الأكبر إلا مع الشعب والمصلحة العامة ، إنك سميع الدعاء [1] .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
بين يدي الطبعة الثانية	٥
كلمة إلى القارىء	٩
همسة في أذن حواء	١٥
صرخة في وجه آدم	٢١
مع الأغنية وسيّدة الغناء العربي	٢٦
احذروا هذا الزواج	٤٢
ظاهرة النفاق	٤٧
متخنفسون	٥٨
شرف المهنة	٦٢
الهوى والشبّاك	٦٩
لاحسو المبرد	٧٥
المترفون في القرآن	٧٨
عاش البنطلون	٨٣
الأنصاف	٨٦
الأذناب	٩٢
هل تعرف تلك ؟	١٠١
اللذان سيدخلان الجنة بغير حساب	١٠٧
الفهرس	١١٢

رقم الايداع ٤٩٨٩ / ٨٦٠

« ... قرأتُ نقداتك فأمتعتني من ناحية ، وأثارت شجوني من ناحية أخرى .

إنك لم تنتقد من عيوبنا إلا غيضاً من فيض . ولكنّ هذا الذي تحدثت عنه كفيل بأن يشل يد الأمة ويفتّت من همتها ، ويكتب عليه الخسران في معركة الوجود والفناء في هذه الحياة ، وفي التاريخ وفي الحياة الأخرى .

وما يؤسيني هو ما يؤسيك . ويزيد فيه أني أرى في كثير من هذه العيوب لا جريرة المتصفين بها فقط ، بل هلهلة نسيج المجتمع الحاضر ، وسخافة بناء الأفراد نفسياً وأخلاقياً وثقافياً ...

لست أريد أن أطيل ، ولكنها نقداتك التي هاجتْ البلبال ! وهذا دليل إصابتك سواء المفصل فيما كتبت ، وعلى حسن موهبتك في الأداء .

فتقبل مع شكري أطيب تقديري وأخلص تحياتي ، »

« الدكتور عبد السلام العجيلي »

قرش جنيه
٤